الفصل التاسع

فى مسألة التوسل والوسيلة

التوسل ــ لغة ــ من وسل يسل ــ من باب وعد ــ أى : رغب وتقرب ، ومنه جاء اشتقاق « الوسيلة » .. وهى ما يتقرب به الى الشىء .. توسل اليه بوسيلة ، أى تقرب اليه بعمل ..

يقول ابن منظور : « الوسيلة : هى المنزلة عند الملك ، وهى الدرجة ، والقربة .. وسل فلان الى الله وسيلة : اذا عمل عملا تقرب به اليه ، والواسل : الراغب الى الله ..

قال لبيد :

أرى النـــاس لا يدرون ما قدر لهم
على كل ذى رأى الى الله واســل

وتوسل اليه بوسيلة : اذا تقرب اليه بعمل ، وتوسل اليه بكذا : تقرب اليه بحرمة آصرة فعطف عليه .. والوسيلة : الوصلى والقربى ، وجمعها : وسائل »[1] .

ويتفق المعنى الشرعى للوســـيلة مع المعنى اللغوى لهـــا .. يقول تعالى : **« يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله وابتغوا اليه الوسيلة »**[2] .

أى : أجيبوا الله بطاعته وامتثال أوامره واجتناب نواهيه ، واطلبوا القربة اليه بالعمل الصالح الذى يرتضيه ..

وعن قتادة : « تقربوا اليه بطاعته » ..

وروى الحاكم بسنده ، عن حذيفة أنه سمع قارئا يقرأ هذه الآية فقال : القربة .. ثم قال : « لقد علم المحفوظون من أصحاب محمد ﷺ أن ابن أم عبد من أقربهم الى الله وسيلة » ..

---

(١) لسان العرب ، لابن منظور ، مادة (و س ل) .
(٢) المائدة : ٣٥

ويقول جل شأنه : « **أولئك الذين يدعون يبتغون الى ربهم الوسيلة أيهم أقرب ويرجون رحمته ويخافون عذابه** »[٣] .

أى : يطلبون الزلفة والقربة من الله ، ويرجون بطاعتهم وعبادتهم رحمته ، ويخافون من عذابه ..

وقد تكون الوسيلة : منزلة خاصة وعلامة مميزة لقرب خاص ، هو أعلى أنواع القرب .

فعن جابر بن عبد الله رضى الله عنه ، أن رسول الله ﷺ قال : « من قال حين يسمع النداء : اللهم رب هـذه الدعوة التامة والصلاة القائمة آت محمدا الوسيلة والفضيلة وابعثه مقاما محمودا الذى وعدته .. حلت له شفاعتى يوم القيامة » .

ويبين الحديث الآخر الذى رواه مسلم بسنده عن عبد الله بن عمرو .. أن الوسيلة فى هذا الحديث هى قوله ﷺ : « منزلة فى الجنة لا تنبغى الا لعبد من عباده ، وأرجو أن أكون هو ، فمن سأل الله لى الوسيلة حلت الشفاعة » ..

والتوسل الى الله تعالى .. يكون باسم من أسمائه ، أو بصفة من صفاته .. وهـذا هو التوسل المطلوب ..

ويكون بعمل صالح قام به الداعى .. وهو جائز مشروع ومرغوب فيه .. بل منه الواجب الذى لا يتم الايمان الا به .

كما يجوز أن يكون بطلب الدعاء من رجل صالح يدعو له ، وهو نوع من الاستشفاع بأحد الأحياء فيما يطلبه العبد من ربه .. وهو جائز اتفاقاً ..

أما التوسل الى مقبور انقطع عمله وانتهى أمره ، أو الاقسام على الله تعالى بذاته أو بجاهه فهو الممنوع شرعا ، لأنه نوع من الشرك .. لأن التوسل هو التقرب الى الله تعالى بما يحب مطلقا ، أو التماسا لحاجة ما ، نتيجة حتمية للتقوى ، وثمرة طيبة للايمان ..

وسنتحدث عن الأنواع الثلاثة الأخيرة للتوسل ، فى حينه ..

* * *

---

(٣) الاسراء : ٥٧

● **الوجه الآخر للعملة :**

يعتقد الصوفيون بجواز التوسل والتشفع والاستغاثة بالأنبياء والصالحين ، فى حياتهم وبعد مماتهم .. كما يعتقدون بجواز التبرك بآثارهم وقبورهم ، والتمسح بها وتقبيلها التماسا لبركة ساكنيها وتعظيما لهم !!

ويرون أن التوسل والتشفع والاستغاثة كلها بمعنى واحد .. وليس لها فى قلوب المؤمنين معنى الا التبرك بذكر أحباب الله تعالى .. لما ثبت — عندهم — أن الله يرحم العباد بسببهم ، سواء أكانوا أحياء أم أمواتاً !!

ويقولون : ان المؤثر الموجد وان كان فى الحقيقة هو الله تعالى .. فان هؤلاء — الموتى — سبب عادى فى ذلك لا تأثير لهم فى ذواتهم ، وذلك مثل السبب العادى ، فانه لا تأثير له !!

ولهذا : لا وجه — عندهم — لمنع التوسل مطلقاً !! (٤)

ويقول الأستاذ موسى محمد على : « وهو — أى التوسل — على ثلاثة أنواع :

النوع الأول : أن التوسل — أى بالنبى ﷺ — بمعنى أن طالب الحاجة يسأل الله تعالى به ، أو بجاهه ، أو ببركته .. ولا فرق فى هذا النوع بين أن يتوسل بذى القدر الرفيع قبل وجوده ، وبعد وجوده .. فى حياته الدنيا ، أو فى حياته الأخرى .. فيجوز ذلك فى الأمور الثلاثة(٥) ..

والنوع الثانى : التوسل به — صلى الله عليه وسلم — بمعنى طلب الدعاء منه فى حياته ، وبعد موته فى عرصات القيامة بالشفاعة منه ، وفى حياته المتوسطة فى مدة البرزخ(٦) .

---

(٤) انظر : حقيقة التوسل والوسيلة على ضوء الكتاب والسنة ، للأستاذ موسى محمد على — ط دار التراث العربى ، ص ١١١ ، ١١٢

(٥) المرجع السابق ص ٣٢ (٦) نفس المرجع ص ٤٢

أما النوع الثالث من أنواع التوسل : فأن يطلب منه ذلك الأمر المقصود ، • بمعنى أنه — صلى الله عليه وسلم — قادر على التسبب فيه بسؤاله ربه وشفاعته اليه ، فيعود الى النوع الثانى من المعنى وان كانت العبارة مختلفة »[٧] •

وينتهى — فضيلته — الى أن : « المراد من الاستغاثة بالأنبياء والصالحين ، والتوسل بهم هو أنهم أسباب ووسائل لنيل المقصود •• وأن الله تعالى هو الفاعل كرامة لهم ، لا أنهم هم الفاعلون — كما هو المعتقد فى سائر الأفعال — فان السكين لا يقطع بنفسه ، بل القاطع هو الله تعالى ، والسكين سبب عادى خلق الله تعالى القطع عنده »[٨] •

وعلى هذا •• فالمدار عندهم فى صحة التوسل : « أنه لا يشترط كونه — أى المتوسل به — حيا فى دار الدنيا •• وأن القول بأن التوسل لا يصلح بأحد الا وقت حياته فى دار الدنيا قول من اتبع هواه بغير هدى من الله تعالى •• فالتوسل بسيدنا رسول الله ﷺ والتوسل بسائر الأنبياء — عليهم الصلاة والسلام — والتوسل بالصالحين من عباد الله سبحانه ، والاستغاثة بهم جميعا — على النحو الذى عليه الأمة — من اعتقاد أنهم عباد مكرمون ، مقبولو الشفاعة عند الله تعالى بفضله ، هو مما أجمعت عليه الأمة (؟!) ودل عليه الكتاب (؟!) ونطقت به صحاح السنة وأقوال العلماء(؟!)ولم يتوقف فى جوازه ولا فى استحبابه ولا فى سنيته أحد من أهل العلم والفضل من عهد الصحابة رضى الله عنهم » (؟!)[٩] •

* * *

● الحصاد المرذول :

تعالوا بنا الى مسجد من المساجد التى بنيت فوق الأضرحة فى

---

(٧) المرجع السابق ص ٤٧ (٨) نفس المرجع ص ٤٩

(٩) المرجع السابق ص ٣١ — وعلامات الاستفهام والتعجب وضعناها بمعرفتنا ، لأن فضيلة المؤلف يخرج المنكرين للتوسل بالمقبورين من عداد الأمة ، وينكر عليهم استدلالهم فى انكارهم له بالكتاب والسنة .. وكأنما أهل الفضل والعلم هم الصوفيون وحدهم !!

القاهرة أو فى أى مدينة أو قرية ، لكى نرى ما يفعله الناس عند زيارتهم لهذه الأضرحة .. ولنعرف الثمرة التى أنضجتها دعوى الصوفية بجواز الاستغاثة بساكنى القبور والأضرحة ..

أول ما يصدمك تسمية المسجد .. فهو مسجد الولى الفلانى بعد أن جردوه من صفته كبيت من بيوت الله .. وبدلا من أن تكون المساجد لله فلا ندعو مع الله أحدا .. أصبحت أماكن للدعاء لكل واحد سوى الله !!

وسوف نرى فى هذه المساجد البدعية ما يذهب بأحلام ذوى الأحلام والعقول !!

هذه طائفة من الناس .. تطوف بالضريح مستلمة لأركانه ، ملتمسة البركة من ساكنه !!

وطائفة أخرى تقبل الأعتاب ، وتتمسح بالضريح !!

وهذا واحد يتجه الى صاحب الضريح بالسؤال والتضرع ، متذللا متخشعا !!

وهذه أخرى تستعين بصاحب الضريح على ضرتها أو جارتها التى ظلمتها !!

وثالث يطلب من ساكن الضريح الشفاعة له ، ورابع يطلب النجاح ، وخامس يطلب الشفاء من العلل والأسقام ، وسادس يطلب الرواج والربح لتجارته ... و .... و .. !!!

بل ان الأمر قد يصل بالبعض من الناس الى كتابة العرائض التى يخطون فيها شكاواهم وحاجاتهم ، ثم يسقطونها فى المقصورة المحيطة بالضريح !!

والبعض الآخر .. يرسل شكواه وحاجته بالبريد ، ويحرص الحرص كله على لصق طابع التمغة بأعلاها ، ثم يوجه العنوان الى شخص ساكن الضريح مقرونا بألقاب التعظيم والتفخيم اللازمة !!

والأدهى من ذلك .. أن يعنون البعض رسائلهم — أى يكتبون العناوين — الى الله تعالى أو رسوله ﷺ عن طريق ساكن الضريح !!

ونتمالك بعض الأنفاس وتجيل النظر فى المتوسلين والضارعين والخاشعين ، فترى أحدهم يدير ظهره للضريح ويستقبل القبلة رافعا يديه بالدعاء .. فتتوسم فيه الخير فما زال فى بعض الناس بقية من سلامة العقيدة .. وتدنو منه لتصغى لما يقول حتى يستقر فى نفسك الاطمئنان واذا به يصك سمعك بما يصدمك .. اذ يقول : « اللهم بحق ساكن الضريح أن تفعل كذا وكذا » !!

وتسأل الناس : ما هذا الذى تصنعون ؟ !

وسرعان ما يأتيك الجواب : اننا نضرع الى الله ، ونتوسل اليه بهؤلاء الصالحين .. عسى أن يتقبل منا الدعاء !!

وينبرى لك أحدهم قائلا : ألم تسمع قول الله تعالى : **« وابتغوا اليه الوسيلة »** ؟ !

فاذا قلت : ليس هكذا يكون التوسل ، وليست هذه هى الوسيلة التى يطلبها الله من عباده ..

فيأتيك الجواب : كيف تريد منا الوقوف أمام الله تعالى وتوجيه الدعاء له مباشرة ، ونحن ننوء بأثقالنا .. اننا مهما فعلنا من حسنات فان ذنوبنا ومعاصينا أكثر .. اننا نقصر فى أداء حق الله تعالى بارتكاب المعاصى ، ولهذا نستشفع اليه بهؤلاء الصالحين الأطهار ، عسى أن يتقبل منا الدعاء !!

تماما كما قال أسلافهم من قبل حين طافوا بالكعبة عرايا : « لا نطوف فى ثياب عصينا الله فيها »!!

وتقول : أأنتم أشد عصيانا لله تعالى من ابليس ؟ ! لقد عصى ابليس ربه وتمرد على أمره .. فلما أحس بخطورة موقفه اتجه الى الله تعالى مباشرة بالدعاء فقال : **« رب فأنظرنى الى يوم يبعثون »**[١٠] ، ولم يقل بجاه جبريل أو بحق ميكائيل .. ولهذا استجاب الله لدعائه فقال : **« فانك من المنظرين »**[١١] .

---

(١٠) الحجر : ٣٦ ؛ وسورة ص : ٧٩

(١١) الحجر : ٣٧ ؛ وسورة ص : ٨٠

اذا قلت هذا .. فان الجواب سوف يأتيك سريعا : أفصح عن نفسك ، فأنت عدو لأولياء الله مبغض لأهله الصالحين !!

ويهم الجمع بالفتك بك .. ولا ينقذك من بين أيديهم الا تدخل رجل وتور بقوله : ياأخى ، دع الناس وعقيدتهم فهى بحمد الله سليمة .. انهم لا يسألون الا الله تعالى ، وان اتخذوا هذا السبيل أدبا مع الله واستصغارا لأنفسهم .. ألم تسمع الدعاء : « اللهم ارزقنا ايمانا كايمان العوام » .. دعوا الناس وشأنهم !!

فتفهم على الفور أن الرجل واحد من سدنة الأضرحة يدافع عن منصبه .. ولا تجد أمامك من حيلة الا أن تغادر المسجد آسفا حزينا ، حتى تنجو بنفسك ، ولسانك يقول : لا حول ولا قوة الا بالله ..

* * *

● **وحوار آخر مريح :**

ترى الواحد منهم .. عاكفا على الضريح ، لائذا به ، متوجها الى ساكنه بالدعاء والتذلل والخشوع .. فتريد ارشاده الى ما يصحح عقيدته فتقول : خفف ياأخى من غلوائك .. فان ما تفعله هو الشرك الذى يأباه الله تعالى ، ألم يقل جل شـــأنه : **« وأن المساجد لله فلا تدعوا مع الله أحدا »**[١٢] ؟

ألم يقل جل وعلا : **« له دعوة الحـــق ، والذين يدعون من دونه لا يستجيبون لهم بشيء »**[١٣] ؟

فيلتفت اليك غاضبا .. ويصيح فى وجهك قائلا : فأين أنت من قوله تعالى : **« ألا ان أولياء الله لا خوف عليهم ولا هم يحزنون »**[١٤] ؟ !

أليس فى هذه الآية الدليل كل الدليل ، على أن الشفاعة حق ، وأن لأولئك الأولياء والصالحين جاها عند الله تعالى ؟

---

(١٢) الجن : ١٨ (١٣) الرعد : ١٤

(١٤) يونس : ٦٢

ثم يقول : نحن لا نشرك بالله ، بل نشهد أنه لا يخلق ولا يرزق ولا ينفع ولا يضر الا الله وحده لا شريك له .. وأن محمدا ﷺ لا يملك لنفسه نفعا ولا ضرا — فضلا عن أولئك الأولياء والصالحين — ولكن أنا مذنب ، والصالحون لهم جاه عند الله ، وأنا أطلب من الله بهم ، ولا أطلب منهم !!

فنقول له : لقد كان المشركون — أيضا — يشهدون أن الله تعالى هو الخالق الرازق وحده لا شريك له .. وأنه لا يرزق الا هو ، ولا يحيى ولا يميت الا هو ، ولا يدبر الأمر الا هو .. وأن جميع السموات السبع ومن فيهن ، والأرضين ومن فيهن كلهم عبيده وتحت تصرفه وقهره ..

واقرأ ان شئت قوله تعالى : « **قل من يرزقكم من السماء والأرض أمن يملك السمع والأبصار ومن يخرج الحى من الميت ويخرج الميت من الحى ومن يدبر الأمر ، فسيقولون الله ، فقل أفلا تتقون** »(١٥) .

وقوله جل شأنه : « **قل لمن الأرض ومن فيها ان كنتم تعلمون . سيقولون لله ، قل أفلا تذكرون . قل من رب السموات السبع ورب العرش العظيم . سيقولون لله ، قل أفلا تتقون . قل من بيده ملكوت كل شىء وهو يجير ولا يجار عليه ان كنتم تعلمون . سيقولون لله ، قل فأنى تسحرون** »(١٦) .

لقد أقر المشركون بهذا كله ، ولكن اقرارهم لم يدخلهم فى التوحيد الذى دعا اليه الرسول ﷺ ، لأنهم جحدوا توحيد العبادة الذى تسمونه اليوم « الاعتقاد » .

لقد كان المشركون يتعبدون ، ويحجون ، ويتصدقون ، ويذكرون الله كثيرا .. ولكنهم يجعلون بعض المخلوقات وسائط بينهم وبين الله تعالى — مثل الملائكة وعيسى ومريم وغيرهم من الصالحين —

---

(١٥) يونس : ٣١ (١٦) المؤمنون : ٨٤ — ٨٩

ويقولون : نريد منهم التقرب الى الله ونريد شفاعتهم عنده .. فبعث الله اليهم محمدا ﷺ ، ليجدد لهم دين أبيهم ابراهيم عليه السلام ، ويخبرهم أن هذا التقرب والاعتقاد محض حق لله ، لا يصلح منه شيء ، لا لملك مقرب ولا لنبي مرسل فضلا عن غيرهما ..

ولقد قاتلهم الرسول ﷺ على هذا الشرك ، ودعاهم الى اخلاص العبادة لله وحده ، وليكون الدعاء كله لله ، والذبح كله لله ، والنذر كله لله ، والاستعانة كلها بالله .. وجميع أنواع العبادة كلها له تعالى ..

فاقرارهم بتوحيد الربوبية لم يدخلهم فى الاسلام .. وقصدهم الملائكة أو الأنبياء أو الأولياء يريدون شفاعتهم والتقرب الى الله بذلك هو الذى أحل دماءهم وأموالهم ..

فيقول لك : هؤلاء الآيات — التى ذكرت — نزلت فيمن يعبد الأصنام .. فكيف تجعل الصالحين مثل الأصنام .. أم كيف تجعل الأنبياء أصناما ؟ !

وتقول : لقد كان من الكفار من يدعو الأصنام .. ومنهم من كان يدعو الأولياء الذين قال الله فيهم : « **أولئك الذين يدعون يبتغون الى ربهم الوسيلة أيهم أقرب ويرجون رحمته ويخافون عذابه** »[١٧] .

ويدعون عيسى ابن مريم وأمه عليهما السلام .. وقد قال تعالى : « **ما المسيح ابن مريم الا رسول قد خلت من قبله الرسل وأمه صديقة ، كانا يأكلان الطعام ، انظر كيف نبين لهم الآيات ثم انظر أنى يؤفكون . قل أتعبدون من دون الله ما لا يملك لكم ضرا ولا نفعا ، والله هو السميع العليم** »[١٨] .

ويقول تعالى : « **ويوم يحشرهم جميعا ثم يقول للملائكة أهؤلاء أياكم كانوا يعبدون . قالوا سبحانك أنت ولينا من دونهم ، بل كانوا يعبدون الجن ، أكثرهم بهم مؤمنون** »[١٩] .

---

(١٧) الاسراء : ٥٧ (١٨) المائدة : ٧٥ ، ٧٦
(١٩) سبأ : ٤٠ ، ٤١

ويقول جل شـــأنه : « **وإذ قال الله ياعيسى ابن مريم أأنت قلت للناس اتخذونى وأمى الهين من دون الله ، قال سبحانك ما يكون لى أن أقول ما ليس لى بحق ، ان كنت قلته فقد علمته ، تعلم ما فى نفسى ولا أعلم ما فى نفسك ، انك أنت علام الغيوب** »(٢٠) .

أعرفت بعد هذا .. أن الله تعالى قد كفر من قصد الأصنام ، وكفر أيضا من قصد الصالحين .. كما قاتلهم رسول الله ﷺ ؟ .

فيقول لك : الكفار يريدون منهم ، وأنا أشهد أن الله تعالى هو النافع الضار المدبر ، لا أريد الا منه ، وأعرف أن الصالحين ليس لهم من الأمر شىء ، ولكنى أقصدهم وأرجو من الله شفاعتهم ..

ونقول له : ان هذا هو نفس قول الكفار .. اقرأ قوله تعالى : « **والذين اتخـــذوا من دونه أولياء ما نعبـــدهم الا ليقربونا الى الله زلفى** »(٢١) .

وقوله جل شأنه : « **ويعبدون من دون الله ما لا يضرهم ولا ينفعهم ويقولون هؤلاء شفعاؤنا عند الله** »(٢٢) ..

فما الفرق بين ما نقوله الآن ، وبين ما قالوه ونعاه عليهم القرآن ؟ !

فيقول لك : أنا لا أعبد الا الله ، وهذا الالتجاء اليهم ودعاؤهم ليس بعبادة ..

ثم يدور بينكما الحوار التالى .. تقول له : أتقر بأن الله افترض عليك اخلاص العبادة له ؟ فيجيب بالايجاب ..

وتقول : لقد قال تعالى : « **ادعوا ربكم تضرعا وخفية ، انه لا يحب المعتدين** »(٢٣) .. فهل علمت هـــذا عبادة لله ؟ .. فيقول : نعم !! ، والدعاء مخ العبادة ..

وتقول : اذا أقررت أنه عبادة ، ثم دعوت الله ليلا ونهارا ، خوفا وطمعا .. ثم دعوت فى تلك الحاجة نبيا أو غيره ، هل أشركت فى عبادة الله غيره ؟ .. فلا يسعه الا اقرارك على ما تقول ..

---

(٢٠) المـــائدة : ١١٦ (٢١) الزمر : ٣

(٢٢) يونس : ١٨ (٢٣) الأعراف : ٥٥

وتقول : فاذا عملت بقول الله تعالى : « **فصل لربك وانحر** »[٢٤] ، وأطعت الله ونحرت له .. هل هذا عبادة ؟ .. فيقرك على ما تذهب اليه ..

وتقول : فان نحرت لمخلوق ، أو نبى أو ولى ، أو غيرهما .. هل أشركت فى هذه العباده غير الله ؟ .. فيجيب بالايجاب ..

وتقول : المشركون الذين نزل فيهم القرآن ، هل كانوا يعبدون الملائكة والصالحين واللات وغير ذلك ؟ .. فلا يسعه الا أن يوافقك على ذلك ..

وتريد أن تنهى الحوار معه بقولك : وهل كانت عبادتهم اياهم الا فى الدعاء والذبح والالتجاء ونحو ذلك ؟ .. والا فهم مقرون أنهم عبيده وتحت قهره تعالى .. وأن الله وحده هو الذى يدبر الأمر ، ولكنهم دعوهم والتجأوا اليهم للجاه والشفاعة ..

ولكنه يستأنف الحوار قائلا : أتنكر شفاعة رسول الله ﷺ وتبرأ منها ؟ !

فتجيبه : لا أنكرها ولا أتبرأ منها .. بل هو ﷺ الشافع المشفع ، وأرجو شفاعته .. ولكن الشفاعة كلها لله تعالى كما قال جل شأنه : « **قل لله الشفاعة جميعا** »[٢٥] .. ولا تكون الا من بعد اذن الله كما قال تعالى : « **من ذا الذى يشفع عنده الا باذنه** »[٢٦] .. ولا يشفع فى أحد الا بعد أن يأذن الله فيه كما قال تعالى : « **ولا يشفعون الا لمن ارتضى** »[٢٧] .. وهو سبحانه لا يرضى الا التوحيد كما قال تعالى : « **ومن يبتغ غير الاسلام دينا فلن يقبل منه** »[٢٨] ..

فاذا كانت الشفاعة كلها لله تعالى ، ولا تكون الا من بعد اذنه ، ولا يشفع النبى ﷺ ولا غيره فى أحد حتى يأذن الله فيه ، ولا يأذن الله تعالى الا لأهل التوحيد .. تبين لك أن الشفاعة كلها لله .. وأنا أطلبها منه فأقول : اللهم لا تحرمنى شفاعته ، اللهم شفعه فى ، وأمثال ذلك ..

---

(٢٤) الكوثر : ٢
(٢٥) الزمر : ٤٤
(٢٦) البقرة : ٢٥٥
(٢٧) الأنبياء : ٢٨
(٢٨) آل عمران : ٨٥

فيقول : النبى ﷺ أعطى الشفاعة ، وأنا أطلبها منه مما أعطاه الله ..

وتقول : ان الله أعطاه الشفاعة ونهاك عن هذا .. فقال : « **فلا تدعوا مع الله أحدا** »[٢٩] .. فاذا كنت تدعو الله أن يشفع نبيه فيك فأطعه فى قوله : « **فلا تدعوا مع الله أحدا** » ، وأيضا فان الشفاعة أعطيها غير النبى ﷺ ، فصح أن الملائكة يشفعون ، والأفراد يشفعون ، والأولياء يشفعون .. أتقول : ان الله أعطاهم الشفاعة فأطلبها منهم ؟ .. فان قلت هذا ، رجعت الى التعبد للصالحين التى ذكرها الله فى كتابه ، وان قلت لا ، بطل قولك : أعطاه الله الشفاعة وأنا أطلبها منه مما أعطاه الله ..

فيقول لك : أنا لا أشرك بالله شيئا ، حاشا وكلا .. ولكن الالتجاء الى الصالحين ليس بشرك !!

وتقول : اذا كنت تقر أن الله حرم الشرك أعظم من تحريم الزنا ، وتقر أن الله لا يغفره .. فما هذا الأمر الذى حرمه الله وذكر أنه لا يغفره ؟

فيقول : الشرك عبادة الأصنام ، ونحن لا نعبد الأصنام !!

وتقول : ما معنى عبادة الأصنام ؟ .. أتظن أنهم يعتقدون أن تلك الأخشاب والأحجار ترزق وتدبر أمر من دعاها ؟ .. فهذا يكذبه القرآن ..

فيقول : لعله أن يكون من قصد خشبة أو حجرا أو بنية على قبر أو غيره يدعون ذلك ويذبحون له ، ويقولون انه يقربنا الى الله زلفى ، ويدفع الله عنا ببركته أو يعطينا ببركته !!

فتقول : صدقت .. وهذا هو فعلكم عند الأحجار والأبنية التى على القبور وغيرها .. فان كان مرادك من قولك « ان الشرك عبادة الأصنام » أن الشرك مخصوص بهذا ، وأن الاعتماد على الصالحين ودعاءهم لا يدخل فى ذلك ، فهذا يرد ما ذكره الله فى كتابه من كفر من تعلق على الملائكة أو عيسى عليه السلام أو الصالحين ..

---

(٢٩) الجن : ١٨

فيعود الى قوله : ألم يقل الله تعـالى : « **ألا ان أوليـاء الله لا خوف عليهم ولا هم يحزنون** » ؟ ..

فنقول له : هـذا هو الحق ، ولكن لا يعبدون ، ونحن لم نذكر الا عبادتهم مع الله وشركهم معه .. والا فالواجب عليك حبهم واتباعهم والاقـرار بكرامتهم .. ولا يجحد كرامات الأولياء الا أهـل البدع والضلال .. ودين الله وسط بين طرفين ، وهدى بين ضلالتين ، وحق بين باطلين ..

واعلم يا أخى : أن التوحيد الذى يأمرنا الله به ، هو افراده وحده بالعبادة .. وأن لا تكون العبادة والطاعة الا اله وحده ، خالصة له ، ولا شريك لأحد معه فيها .. ولابد أن يكون هذا التوحيد بالقلب واللسان والعمل .. فان اختل شىء من هذا لم يكن الرجل مسلما ، فان من عرف التوحيد ولم يعمل به فهو كافر معاند ، كفرعون وابليس وأمثالهما ، أعاذنا الله من ذلك ..

ولقد وعدنا تعالى .. أنه سيفصل يوم القيامة بين أولئكم الذين اتخذوا الأولياء من دونه ، وبين الذين أفردوه وحده بالعبادة والطاعة .. وسيحكم تعالى فيما كانوا فيه يختلفون فيجزى كل بعمله وعقيدته .. نسأل الله أن يهدينا واياك الى سواء السبيل[٣٠] ..

* * *

ويصف لنا فضيلة الشيخ محمد الغزالى هذه الحالة المفزعة التى تردى المسلمون اليها فيقول : « ومما وقع فيه العوام : الاتجاه الى قبور بعض الصالحين ، يطلبون من أصحابها ما لا يطلب الا من الله عز وجل ..

« لعل سر هذا الشرود .. أن الناس يرون فى أنفسهم ضعة تقصر بهم عن مناجاة الله مباشرة .. فهم يذهبون بحاجاتهم الى قوم أزكى حالا ليرفعوا عنهم ما لا يمكنهم رفعه بأفئدتهم وألسنتهم !!

---

(٣٠) عن كتاب « كشف الشـبهات فى التوحيد » ، للامام محمـد بن عبد الوهاب ، بتصرف كثير ..

« وهـذه العلة .. هى سر الانصراف عن الله الحق الى عبيده الذين يسـمعون ، والذين لا يسـمعون .. بل الذين يعقلون والذين لا يعقلون !!

« وكم من علة ظاهرها زيادة توقير الله بانتهاك حرمات الله !! ألا ترى أن المشركين كانوا يطوفون بالكعبة عرايا ، نسـاء ورجالا ، محتجين بأنه لا ينبغى أن يطوفوا فى ثياب عصوا الله فيها !!

« فالتحرج من الاتصال بالله دون وساطة .. كان جريمة الوثنية القديمة التى صـور القرآن الكـريم اعتذارها عن شركها بقـوله : **« ما نعبدهم الا ليقربونا الى الله زلفى »**[٣١] .

« وهذا الاعتذار نفسه .. هو ما يردده سدنة الجاهلية الحديثة فى دفاعهم عن قصاد القبور طلبا للشفاء والفلاح ، والتماسا للنجدة والعون!!

« وبدهى أن لا مكان فى الاسلام لوسطاء بين الله وخلقه .. فان كل مسلم مكلف أن يقف بين يدى الله مهما كانت حالته ، وهو موقن بأن دعاءه ينتهى الى سمع الرحمن من غير تدخل بشر آخر أيا كان شـأنه ..

« والعبادة الأولى فى الاسلام — وهى الصلاة المقسمة على أجزاء النهار والليل — قوامها هذه الحقيقة المؤكدة التى لا ريب فيها ..

« فكيف يوجب الله على عباده أن يترددوا على ساحته ، ويسألوه — حتما — الهداية الى الصراط المستقيم ، ويسجدوا بين يديه ضارعين طالبين .. وكيف يعتبر التخلف عن هذه الصلوات كفراً به أو اهداراً لحقه ، ثم يسوغ لأحد من الناس بعد أن يقول : أنا محتاج لوسيط يحمل عنى الى الله ما أريد ؟ !

« ان هذا لا تفسير له الا الرغبة فى الشرك الخفى أو الجلى !!

« وتسأل طالب الوساطة : من تختار يكلم لك الله ؟ .. فلو أنه

---

(٣١) الزمر : ٣

اختار من الأحياء رجلا يتوسم فيه الصلاح ليدعو الله له ، لهان الخطب .. بيد أن العجيب قصده الى الأموات الذين انقطعت بالدنيا صلاتهم ، وأفضوا الى ما قدموا من عمل !! ولا شعور لهم بهذا القاصد الجهول الذى جاء .. لم ؟ .. ليطلب منهم أو يستشفع بهم » !!

ثم يقول فضيلته : « ان التفكير الاسلامى .. سقط فى هـذه الوهدة الشائنة من أمد بعيد ، فدارت حول الولاية والأولياء خرافات شتى ، وجاءت على الناس أيام ظنوا فيها أن مقاليد الكون أصبحت بأيدى نفر من هؤلاء الهلكى ، يصرفونها — بدلالهم على اللـه — كما يشاءون !!

« وزاد الطين بلة .. أن أولئك الأولياء المقصودين تجاوزت أقدارهم قوانين الأسباب والمسببات المعروفة .. فاضطربت — تبعا لذلك — نظرة المسلمين الى سنن الله الكونية ، وحسبوها تلين لكل من واظب على شىء من العبادة !!

« وانتهى أمر هذه الأمة المنكودة .. الى أن فقدت مكانتها العالية فى دنيا تعتمد على المعرفة الحقة بأسرار الطبيعة وقوانين الحياة .. بعد أن فقدت أيضا منزلتها عند الله مذ أشركت معه من لا يملك لنفسه أو لغيره ضراً ولا نفعاً !!

« أفحسب الذين كفـروا أن يتخذوا عبادى من دونى أولياء ، انا أعتدنا جهنم للكافرين نزلا »(٣٢) .

ثم يقـول فضيلته : « لمـاذا يكون من الدين الاعتراف بحـق « أناس ما » فى التوسط بين الله وخلقه ؟ !

« ولمـاذا يكون من الدين الاعتراف بقدرة هؤلاء على اختراق نواميس الطبيعة وصنع الخوارق الباهرة ؟ !

« ولمـاذا يعد من شعب الايمان بالله ورسوله واليوم الآخر ، أن نقر بحقوق هذه الولايات وطاقتها الواسعة فى تصريف الشـئون وبعث الشجون ؟ !

---

(٣٢) الكهف : ١٠٢

« الحق أن هذا كله تخليط سمج .. وأن اللجاجة فيه نزعة جاهلية .. ولن تعدم دعيا فى الاسلام يخاصم عن هذه الأوهام ، ويحاول تعكير التوحيد الخالص — وهو روح الاسلام ومادته — بلغط لا عقل فيه ولا اخلاص ، زاعما أن اتخاذ الوسطاء لا ينافى تعاليم الدين ..

« ولا غرابة .. فان النصارى يرون التثليث توحيدا !! .. « وكان الانسان أكثر شىء جدلا »[٣٣] ..

* * *

تحدث هذه الأمور وغيرها .. فيراها المسلم وغير المسلم .. ويسجلها المستشرقون ليرموا بها المسلمين جميعا ، ويحملوا الاسلام أوزارها .. فلا فرق عندهم بين صوفى وغير صوفى ، فالكل عندهم مسلمون .. والهدف الذى يهدفون اليه هو تشويه الاسلام والكيد للمسلمين .. لذا نراهم يرمون المسلمين جميعا بالحماقة والغباء وعبادة الأساطير !!

ولقد أساءت هذه الأفكار الدخيلة على الاسلام اليه بأكثر مما أساء أعداؤه !!

يقول المستشرق الانجليزى « لين » : « يزور المصريون الأضرحة معتقدين أنهم سينزلون عليهم البركات ، واما بقصد التماس البرء من مرض ، أو طلب النسل .. ويعتبر المسلمون أولياءهم المتوفين شفعاء لهم عند الله ، ويقدمون لهم النذور » !!

ويقول : « وقد جرت العادة .. أن يقوم المسلمون كما كان يفعل اليهود بتجديد بناء قبور أوليائهم وتبييضها وزخرفتها ، وتغطية التركيبة أو التابوت أحيانا بغطاء جديد .. وأكثر هؤلاء يفعلون ذلك رياء كما كان يفعله اليهود » !! [٣٤]

ويقول جولدزيهر : « بقى كثير من عناصر الديانات السابقة

---

(٣٣) ليس من الاسلام ، مرجع سابق ، ص ١٦٤ — ١٦٦ ، والآية من سورة الكهف : ٥٤

(٣٤) المصريون المحدثون ، للمستشرق لين ، ص ١٦٧ وما بعدها ..

للاسلام ، واستأنفت حياتها فى المظاهر العديدة الخاصة بتقديس الأولياء .. وفى الحق ليس من شىء أشد خروجا على السنة القديمة من هذا التقديس المبتدع المفسد لجوهر الاسلام والماسخ لحقيقته ، وان السنى الصادق الحريص على اتباع السنة لابد أن يعده من قبيل الشرك الذى يستثير كراهيته واشمئزازه » !!

وعندما يتحدث عن تقديس العامة للأولياء ، نراه يقول : « وأضرحة الأولياء والأماكن المقدسة الأخرى .. هى موضع عبادتهم التى يرتبط بها أحيانا ما يظهره العامة من تقديس وثنى غليظ لبعض الآثار والمخلفات ، بل ان العامة تخص الأضرحة ذاتها بما لا يقل عن العبادة المحضة » !!

ويتحدث عن الولى المحلى ، فيقول : « ويخشى الواحد منهم أن يحنث فى يمين حلف فيه باسم الولى أكثر مما يحمر خجلا عندما يحلف بالله باطلا » !! (٣٥) .

ويقول رونلدسن : « بالرغم من التوحيد المصرح به فى القرآن .. فان الأمم الاسلامية لا زالت تحتفظ بكثير من العادات الوثنية .. فان من أهم الصفات فى الحياة الدينية للعوام فى جميع الأمم الاسلامية هو تقديسهم لقبور الصالحين .. وفى هاتين القضيتين ساير العلماء المحدثون اندفاع الرأى العام ، وقد أصبح لكل قوم أئمة محليون يزورون قبورهم وآثارهم ، فيفرح ذلك الامام ويشفع لهم وينجيهم من الفقر والمرض » !! (٣٦)

ويقول جوتييه : « وتقديس الأولياء الى درجة قد تقرب من العبادة الذى نراه انتشر بعد فى جميع الأقطار الاسلامية ، يشير فى الحقيقة الى رد فعل من الأمم والشعوب التى فتحها الاسلام ضد العقلية الاسلامية التى لا تسلم بوسطاء أو شفعاء لدى الله ، انه لم يترصد اجلال الأولياء والرسول الى ما يقرب من العبادة — أى ضد هذا التغيير الخطير فى العقلية الاسلامية الأولى — الا الطائفة الوهابية » !! (٣٧)

---

(٣٥) العقيدة والشريعة ، لجولدزيهر ، ص ٢٣٢ ، ٢٣٤

(٣٦) عقيدة الشيعة ، لرونلدسن ، ص ٢٦٦

(٣٧) المدخل ، لجوتييه ، ص ١٥٨

أرأيت كيف أساءت هذه الأفكار الدخيلة على الاسلام اليه بأكثر مما يسيء اليه أعداؤه ؟ !

فما الذى قاد الناس الى هذه الأفكار المنكرة ؟ ؟

ان الله تعالى يقول : « **وأن المساجد لله فلا تدعوا مع الله أحدا** »(٣٨) .

ويحذرنا الرسول ﷺ من اقامة المساجد فوق القبور ، وينهى عن ذلك ويلعن فاعله ..

ولكن الناس أعرضوا عن أمر ربهم ، وعصوا سنة نبيهم .. فأصبح هذا حالهم !!

ولو سلمنا — جدلا — للصوفية أن اقامة هذه المساجد فوق القبور ليس مظهرا من مظاهر الشرك — بالرغم من تحذير الرسول ﷺ ونهيه عنه ولعن فاعله — فهل نستطيع التسليم بأن هذا الأمر ليس من الأبواب التى تؤدى الى الشرك .. والعياذ بالله ؟ !

* * *

لم تكن عقيدة « الوسيلة » — بمفهومها لدى الصوفية — احدى العقائد التى قام عليها الاسلام ، فكيف أدخلت هذه العقيدة على الفكر الاسلامى ؟ !

يحدثنا المرحوم الدكتور محمد البهى عن أصل هذه العقيدة وادخالها على الفكر الاسلامى فيقول :

« نشأت عقيدة « الوسيلة » فى الفكر الاسلامى من اعتقاد الشيعة بعصمة الامام ، والقول بالتقية والوسيلة ..

« والوسيلة — عند الشيعة — هى اتخاذ الامام واسطة عن طريق تلقى تعاليمه واتباع رأيه فى الوصول الى الآخرة .. وهى القربى من الله سبحانه تعالى ..

« وقد جاءت الوسيلة — على هذا النحو — الى الجماعة الاسلامية عن طريق مدرسة الأفلاطونية الحديثة .. فقد حددت هذه المدرسة

---

(٣٨) الجن : ١٨

العالم الرفيع فى الوجود الرفيع فى القيمة — من أجل كونه أصلا لما عداه ، ومشرفا ومدبرا لغيره وراعيا لتوجيهه — بثلاثة من الموجودات هى : الأول ، والعقل ، والنفس الكلية ..

« ولم تقتصر هذه العقيدة على غلاة الشيعة .. لأنا نراها توجد عند الصوفية المتأخرة .. ويلعب الدور الأول فيها : « المريد » — أو « صاحب الفراسة » — كما توجد عند عوام الفرق الأخرى تقليدا والفا وعادة .. ويمثل هذا الدور فى نظرهم « الأولياء » — وهم أصحاب الكرامات ..

« والاسلام — فى تحديده للأولياء — لم يعرف ذلك التحديد العرفى .. فالولى لم يزل فى القرآن الكريم هو المتبع لكتاب الله ورسالته ..

« وأولياء الله — الذين لا خوف عليهم ولا هم يحزنون — هم أصحاب الايمان القوى .. بحيث لا يزعجهم فى حياتهم نقص فى الأموال والأنفس والثمرات .. ولا تزعجهم هزيمة ولا طغيان صاحب سلطان ..

« لهذا يحارب الفكر الاسلامى السليم الصوفية المتأخرة لقولها بالاتحاد والحلول .. وبرفع التكاليف بناء على فهمها الخاص فى القرآن من أن له ظاهرا وباطنا ، كما يحارب وجوب شد الرحال الى قبور الصالحين أو الأولياء واتخاذهم وسائط بين الله تعالى وعباده »[٣٩] .

* * *

● **ما هو التوسل ، وما هى الوسيلة ؟**

لقد غاب المعنى الشرعى واللغوى للتوسل — وهو التقرب الى الله تعالى بالعمل الصالح — عن أولئكم الذين اتخذوا الأولياء والصالحين وسطاء وشفعاء .. يتجهون بهم الى الله تعالى ، وفى ظنهم أنهم بفعلهم هذا يمتثلون لتوجيه القرآن الكريم فى قوله تعالى : « **وابتغوا اليه**

---

(٣٩) الفكر السلامى فى تطوره ، للدكتور محمد البهى ، نشر مكتبة وهبة ، الطبعة الأولى ، ص ٧٧ ، ٧٨ بتصرف يسير ..

الوسيلة » .. وظنوا أن الوسيلة المطلوبة هى فى التوجه الى المقبورين بالدعاء والاستغاثة وطلب العون والنصرة !!

وسبق أن قلنا : ان التوسل الى الله تعالى يكون بعمل صالح قام به الداعى ، وهو نوع من التقرب اليه تعالى .. وهو أمر جائز ومشروع ومرغوب فيه .. بل منه الواجب الذى لا يتم الايمان الا به ..

يقول الله تعالى فى وصف أولى الألباب : **« الذين يذكرون الله قياما وقعودا وعلى جنوبهم ويتفكرون فى خلق السموات والأرض ربنا ما خلقت هذا باطلا سبحانك فقنا عذاب النار . ربنا انك من تدخل النار فقد أخزيته ، وما للظالمين من أنصار . ربنا اننا سمعنا منادياً ينادى للايمان أن آمنوا بربكم فآمنا ، ربنا فاغفر لنا ذنوبنا وكفر عنا سيئاتنا وتوفنا مع الأبرار »**(٤٠) .

أى هم الذين يذكرون الله قياما فى صلاتهم .. وقعودا فى مجالسهم .. ومضطجعين على جنوبهم .. فلا يقطعون ذكره فى جميع أحوالهم : بألسنتهم ، وسرائرهم ، وضمائرهم .. فى الصلاة ، وفى غير الصلاة ، وفى قراءة القرآن ..

هم الذين يتفكرون فى الأمور الدالة على عظمة الخالق ، ويعتبرون بصنعة صانع ذلك الخلق ، وأنه ليس كمثله شىء .. قائلين : انك يارب لم تخلق هذا الخلق عبثاً ولا لعباً ، وانما خلقته لأمر عظيم .. ننزهك يارب عن أن تفعل شيئاً عبثاً .. فقنا ياربنا من عذاب الجحيم ، فان من أدخلته النار من عبادك فقد أهنته غاية الاهانة ، وليس للظالمين من ناصر ينصرهم أو ينقذهم من عذاب الله ..

ويقولون : ربنا اننا سمعنا داعياً يدعو الى الايمان — وهو الرسول ﷺ أو القرآن — فصدقنا بذلك يارينا ، فاستر عنا خطايانا ، ولا تفضحنا بها يوم القيامة ، وامح بفضلك ورحمتك سيئات أعمالنا ، واقبضنا اليك ، واحشرنا فى زمرة الأبرار الذين رضيت عنهم ..

---

(٤٠) آل عمران : ١٩١ — ١٩٣

ويقول جل شأنه في وصف المؤمنين : « **انه كان فريق من عبادى يقولون ربنا آمنا فاغفر لنا وارحمنا وأنت خير الراحمين** »(٤١) .

أى أن أهل الايمان يقولون فى الدنيا : ربنا آمنا بك وبرسولك ، فاغفر لنا ذنوبنا ، وارحمنا ولا تعذبنا بعذابك ..

والمقصود .. أن هؤلاء وهؤلاء .. قد قدموا التوسل بالعمل الصالح — وهو الايمان — على طلب المغفرة والرحمة .. رجاء الاجابة ..

وفى الحديث الشريف الذى يرويه عبد الله بن عمر — رضى الله عنهما — ما يدل على هذا المعنى .. حيث يقول : « سمعت رسول الله ﷺ يقول : « انطلق ثلاثة نفر ممن كان قبلكم حتى آواهم المبيت الى غار(٤٢) فدخلوه .. فانحدرت صخرة من الجبل فسدت عليهم الغار ، فقالوا : انه لا ينجيكم من هذه الصخرة الا أن تدعوا الله تعالى بصالح أعمالكم ..

« قال رجل منهم : اللهم كان لى أبوان شيخان كبيران .. وكنت لا أغبق(٤٣) قبلهما أهلا ولا مالا .. فنأى بى طلب الشجر(٤٤) يوما فلم أرح عليهما حتى ناما .. فحلبت لهما غبوقهما فوجدتهما نائمين ، فكرهت أن أوقظهما وأن أغبق قبلهما أهلا أو مالا .. فلبثت والقدح على يدى أنتظر استيقاظهما حتى برق الفجر والصبية يتضاغون(٤٥) عند قدمى .. فاستيقظا فشربا غبوقهما .. اللهم ان كنت فعلت ذلك ابتغاء وجهك ففرج عنا ما نحن فيه من هذه الصخرة .. فانفرجت شيئا لا يستطيعون الخروج منه ..

« وقال الآخر : اللهم انه كانت لى ابنة عم كانت أحب الناس الى — وفى رواية : « كنت أحبها كأشد ما يحب الرجال النساء » — فأردتها على نفسها فامتنعت منى ، حتى ألمت بها سنة من السنين(٤٦) فجاءتنى

---

(٤١) المؤمنون : ١٠٩ (٤٢) أى : لجأوا الى كهف فى الجبل .
(٤٣) الغبوق : شراب العشى ، والصبوح شراب الصبح ..
(٤٤) أى : بعد به طلب الشجر الذى ترعى فيه الماشية ..
(٤٥) أى : يصيحون من الجوع .
(٤٦) أى : أصابها سنة مقحطة مجدبة لا تنبت فيها الأرض .

فأعطيتها عشرين ومائة دينار على أن تخلى بينى وبين نفسها ، ففعلت .. حتى اذا قدرت عليها — وفى رواية : « فلما قعدت بين رجليها » — قالت : اتق الله ولا تفض الخاتم الا بحقه[٤٧] .. فانصرفت عنها وهى أحب الناس الى وتركت الذهب الذى أعطيتها .. اللهم ان كنت فعلت ذلك ابتغاء وجهك فافرج عنا ما نحن فيه .. فانفرجت الصخرة غير أنهم لا يستطيعون الخروج منها ..

« وقال الثالث : اللهم انى استأجرت أجراء وأعطيتهم أجرهم غير رجل واحد ترك الذى له وذهب .. فثمرت أجره[٤٨] حتى كثرت منه الأموال ، فجاءنى بعد حين وقال : ياعبد الله ، أد الى أجرى . فقلت له : كل ما ترى من أجرك من الابل والبقر والغنم والرقيق . فقال : ياعبد الله ، لا تستهزىء بى .. فقلت : لا أستهزىء بك ، فأخذه كله فاستاقه فلم يترك منه شيئا .. اللهم ان كنت فعلت ذلك ابتغاء وجهك فافرج عنا ما نحن فيه .. فانفرجت الصخرة فخرجوا يمشون »[٤٩] .

هؤلاء النفر الثلاثة .. لم يتوسلوا الى الله تعالى بنبى أو ولى ، ولم يستشفعوا بميت أو حى .. انما توسلوا بصالح أعمالهم ..

والرسول ﷺ .. لم يقص علينا نبأ أولئك النفر لنتسامر بحديثهم ونسلى أنفسنا برواية سيرتهم .. انما أراد تعليمنا أن التوسل الى الله تعالى لا يكون الا بالعمل الصالح .

والصحابة رضوان الله عليهم .. فهموا الدرس ووعوه تماما .. فلم يتوسلوا الى الله تعالى الا بالأعمال الصالحة .. فهل نفهم نحن أيضا الدرس ونعيه ؟ ؟

● كما يجوز أن يكون التوسل بطلب الدعاء من رجل صالح يدعو له .. وهو نوع من الاستشفاع بأحد الأحياء فيما يطلبه العبد من ربه .. وهو جائز اتفاقاً ..

---

(٤٧) كناية عن فض البكارة ، وحقه هو الترويج المشروع .
(٤٨) أى : نماه له بالاتجار فيه .
(٤٩) الحديث متفق عليه ..

كان عمر بن الخطاب رضى الله عنه — فيما رواه أنس بن مالك — يستسقى بالعباس بن عبد المطلب — رضى الله عنه — اذا قحطوا .. ويقول : « اللهم انا كنا نتوسل اليك بنبينا ﷺ ، فتسقينا .. وانا نتوسل اليك بعم نبينا فاسقنا » ..

والعباس رضى الله عنه قائم بينهم يتوسل معهم .. فيسقيهم الله ..

ويروى : أنه بعد أن فرغ عمر رضى الله عنه قام العباس وقال : « اللهم انه لم ينزل بلاء من السماء الا بذنب ، ولم يكشف الا بتوبة .. قد توجه بى القوم اليك لمكانى من نبيك ﷺ ، وهذه أيدينا اليك بالذنوب ، ونواصينا بالتوبة ، وأنت الراعى لا تهمل الضالة ، ولا تدع الكسير بدار مضيعة ، فقد ضرع الصغير ورق الكبير وارتفعت الأصوات بالشكوى ، وأنت تعلم السر وأخفى .. اللهم فأغثهم بغياثك قبل أن يقنطوا فيهلكوا ، فانه لا ييأس من روح الله الا القوم الكافرون » .. قال : فما تم كلامه حتى ارتفعت السماء مثل الجبال ..

والمقصود : استحباب الاستشفاع بأهل الخير والصلاح ، وأهل بيت النبوة — ماداموا أحياء ويدعون مع الداعين — ولو كان التوسل بالموتى جائزا ، لما ترك عمر رضى الله عنه التوسل بالرسول ﷺ بعد انتقاله الى الرفيق الأعلى ، فى حين أنه كان يتوسل به عندما كان حيا بينهم .. فلماذا يدع عمر قبر الرسول ويلجأ الى العباس متوسلا به اذا كان التوسل بالموتى جائزا ؟ !

ولا شك أن رسول الله ﷺ .. أعلى مقاما وأرفع منزلة من جميع الأنبياء والأولياء والصالحين .. فاذا جاز لعمر رضى الله عنه ترك الدعاء عند قبره ﷺ والتوسل به ، فان ترك الدعاء والتوسل بغيره من الأنبياء والصالحين أولى ..

ويروى أن معاوية بن أبى سفيان .. خرج يوما يستسقى ، فلما جلس على المنبر قال : أين يزيد بن الأسود الجرشى ؟ .. فقام يزيد ودعاه معاوية فأجلسه أمامه ، ثم قال : « اللهم انا نستشفع اليك بخيرنا

وأفضلنا يزيد بن الأسود .. يايزيد ، ارفع يديك » .. فرفع يزيد يديه ودعا الله تعالى .. فثارت فى الغرب سحابة مثل الترس ، وهب لها ريح فسقوا حتى كادوا لا يبلغون منازلهم !!

فلماذا لم يتوسل معاوية بالرسول ﷺ أو بأبى بكر ، أو بعمر ، أو بعثمان ، أو بعلى رضى الله عنهم اذا كان التوسل بالموتى جائزا ؟ !

فى استسقاء عمر .. كان العباس بن عبد المطلب حيا ، وكان يستسقى معهم ..

وكان يزيد بن الأســـود حيا حين استسقى به معاوية ، وكان يستسقى معهم ..

لقد كان التوسل الذى جرى عليـــه السلف الصالح .. أن يدعو المتوسل به ربه ويدعون معه .. فهو من هذه الناحية شفيع لهم ، وسائل لا مسئول .. اذ المسئول والمقصود هو الله تعالى وحده ..

فالتوسل اذن .. يراد به معنيان صحيحان باتفاق المسلمين .. الأول : هو أصل الايمان والاسلام — وهو التوسل الى الله تعالى بالايمان بالرسول ﷺ وبطاعته ، والثانى : هو التوسل بدعاء الرسول ﷺ وشفاعته .. وهما جائزان باجماع المسلمين ..

● أما المعنى الثالث للتوسل — الذى جرى عليه الناس فى الأزمنة المتأخرة — وهو التوسل الى الله تعالى بالاقسام عليه بأحد من خلقه .. فهو ممنوع عند الجمهور .. لأنه لم يقع من الصحابة رضوان الله عليهم .. لا فى حياة الرسول ﷺ ، ولا بعد موته .. ولم يثبت فى دعاء من الأدعية الصحيحة ..

يقول ابن تيمية : « ... ويراد بالتوسل معنى ثالث لم ترد به سنة ، وهو الاقسام على الله تعالى بذات الرسول ﷺ والسؤال بذاته .. فهذا هو الذى لم تكن الصحابة تفعله لا فى الاستسقاء ولا فى غيره .. لا فى حياته — ﷺ — ولا بعد مماته .. لا عند قبره ولا غير قبره .. ولا يعرف هذا فى شىء من الأدعية المشهورة بينهم »[٥٠] ..

---

(٥٠) قاعدة جليلة فى التوسل والوسيلة ، لابن تيمية ، ط المنار ، ١٣٥٤ هـ ، ص ٤٤

فهذا الاقسام على الله تعالى بذات الرسول ﷺ .. أو بغيره من المخلوقات ، لا يجوز شرعا لقول الرسول ﷺ : « ألا ان الله ينهاكم أن تحلفوا بآبائكم ، من كان حالفا فليحلف بالله ، أو ليصمت »[٥١] .. فاذا كان هذا فى القسم بغير الله على أحد من المخلوقين ، فكيف بالقسم على الله تعالى بأحد مخلوقاته ؟ !

هل يتفق هذا مع الأدب مع الله سبحانه حيث يؤكد المقسم طلبه بالقسم ؟ !

وهل يتناسب مع ما ينبغى من الخضوع التام لله جل شأنه ، والتذلل والافتقار له فى كل حين .. فضلا عن حال الرجاء ؟ !

● ويقول الدكتور يوسف القرضاوى[٥٢] : « من الشرك الأكبر نوع خفى .. يخفى على كثير من الناس .. ومنه دعاء الموتى والمقبورين من أصحاب الأضرحة والمقامات ، والاستعانة بهم وطلب قضاء الحوائج منهم من شفاء المرضى ، وتفريج الكربات ، واغاثة الملهوف ، والنصر على العدو — مما لا يقدر عليه الا الله — واعتقاداتهم بأنهم يضرون وينفعون .. وهذا أصل الشرك العام كما قال ابن القيم ..

« وسبب خفاء هذا الشرك أمران ، الأمر الأول : أن الناس لا يسمون هذا الدعاء والاستعانة والاستغاثة بأصحاب القبور عبادة ، ويظنون أن العبادة انما تنحصر فى الركوع والسجود والصلاة والصيام ونحوها .

« والأمر الثانى : أنهم يقولون : نحن لا نعتقد أن هؤلاء الأموات الذين ندعوهم ونستغيث بهم آلهة أو أرباب لنا .. بل نعتقد أنهم مخلوقون مثلنا ، ولكنهم وسائط بيننا وبين الله وشفعاء لنا عنده ..

« وهذا من جهلهم بالله جل جلاله .. فقد حسبوه مثل الملوك الجبارين والحكام المستبدين .. لا يستطاع الوصول اليهم الا بوسطاء وشفعاء .. وهو نفس الوهم الذى سقط فيه المشركون قديما حين قالوا

---

(٥١) رواه البخارى ..

(٥٢) فى كتابه : « حقيقة التوحيد » ، مرجع سابق ، ص ٤٠ — ٤٢

عن آلهتهم وأصنامهم : « **ما نعبدهم الا ليقربونا الى الله زلفى** »(٥٣) .

« يقول تعالى : « **ويعبدون من دون الله ما لا يضرهم ولا ينفعهم ويقولون هؤلاء شفعاؤنا عند الله** »(٥٤) .

« ولم يعتقدوا يوما أن آلهتهم وأصنامهم تخلق أو ترزق ، أو تحيى أو تميت .. كما قال تعالى : « **ولئن سألتهم من خلق السموات والأرض ليقولن خلقهن العزيز العليم** »(٥٥) .

« وقوله تعالى : « **قل من يرزقكم من السماء والأرض أم من يملك السمع والأبصار ومن يخرج الحى من الميت ويخرج الميت من الحى ومن يدبر الأمر ، فسيقولون الله ، فقل أفلا تتقون** »(٥٦) .

« ومع هذا الاعتقاد فى الله تعالى أنه خالق السموات والأرض ، وأنه الرزاق المدبر ، المحيى المميت .. والاعتقاد فى الأصنام أنها مجرد وسائط وشفعاء لهم عند الله .. مع هذا كله رماهم القرآن بالشرك وسماهم المشركين ، وأمر بقتالهم حتى يتوبوا من الشرك ويقولوا : « لا اله الا الله » .. فمن قالها فقد عصم دمه وماله الا بحق الاسلام ..

« ان الله تعالى غنى عن الوسائط والشفعاء .. وهو أقرب الى عبده من حبل الوريد ، كما قال تعالى : « **واذا سألك عبادى عنى فانى قريب** »(٥٧) .

« وقال : « **وقال ربكم ادعونى أستجب لكم** »(٥٨) .

« وبابه تعالى مفتوح لكل من أراد الدخول .. ليس عليه حاجب ولا بواب » ا هـ .

* * *

غير أن البعض .. يتعللون لجواز هذا النوع من التوسل بحديث عثمان بن حنيف — رضى الله عنه — الذى أخرجه أحمد والنسائى

---

(٥٣) الزمر : ٣ (٥٤) يونس : ١٨
(٥٥) الزخرف : ٩ (٥٦) يونس : ٣١
(٥٧) البقرة : ١٨٦ (٥٨) غافر : ٦٠

وابن ماجه : « أن رجلا ضريرا أتى النبـــى ﷺ فقال : ادع الله أن يعافينى .. فقال ﷺ : « ان شئت دعوت ، وان شئت صبرت فهـــو خير لك » .. قال : فادعه .. فأمره ﷺ أن يتوضأ فيحسن الوضوء ، ثم يصلى ركعتين ويدعو بهذا الدعاء : « اللهم انى أسألك وأتوجه اليـــك بنبيك محمد نبى الرحمة ، يامحمد : انى قد توجهت بك الى ربى فى جاجتى هـــذه لتقضى ، اللهم فشفعه فى » .. وزاد الحاكم : « فدعا بهذا الدعاء فقام وقد أبصر » ..

لهذا أفتى العز بن عبد السلام بمنعه فى غير النبى ﷺ ، ويعلق عليه الشوكانى فى « تحفة الذاكرين » بقوله : « الحديث صحيح ، وصححه أيضا ابن خزيمة ، وفيه دليل على جواز التوسل برسول الله ﷺ الى الله عز وجل ، مع اعتقاد أن الفاعل هو الله تعالى ، وأنه المعطى المـــانع .. ما شاء كان وما لم يشأ لم يكن .. فقوله فى الحديث : « أسألك وأتوجه اليك بنبيك ... الخ » .. سؤال بالذات وقسم » ..

هذا ما يقوله الشوكانى .. ولكن ابن تيمية وغيره من الحنابلة ـــ يمنعونه مطلقاً .. ويقولون : ان « الباء » فى قوله : « أتوجه اليك بنبيك » للسببية لا للقسم .. والمعنى : أسألك وأتوجه اليك بسبب محمد ﷺ .. فهو من التوسل بمعنى الشفاعة ..

ونضيف : أن الواقعة انما حدثت فى حياة الرسول ﷺ .. وهو الذى أمره بهذا الدعاء .. ولم تحدث بعد انتقاله الى الرفيق الأعلى ، فهو من قبيل الاستشفاع به ﷺ ..

ويقول فضيلة الشيخ أمين محمود خطاب ـــ رحمه الله : « التوسل المشروع بالاتفاق هو التوسل بالعمل الصالح ، وبالغير على أنه شفيع ، وسائل لا مسئول .. بل المسئول هو الله تعالى لأنه هو الضار النافع .. المعطى المـــانع ..

« وأما ما يقع من العوام وأشباههم مخالفا لذلك فغير مشروع .. ترى أحدهم اذا نزل به أمر خطير ، ترك دعاء الله تعالى ودعا غيره ..

فينادى بعض الأولياء كالسيد والدسوقى والسيدة زينب والشافعى والرفاعى والبيومى ... الخ !!

« ومنه قول بعض العامة : « العارف لا يعرف والشكوى لأهل البصيرة عيب » !!

« وقولهم : « سقت فلانا عليك يارب » !! ، و « توسلت اليك بجاه الولى فلان أو بمقامه » !!

« فهذا عمل مذموم يجب البعد عنه ، وهو لا يبلغ حد الكفر ..

« أما اذا كان المتوسل يعتقد أنه لا يحصل المطلوب الا به ، ولا يجيب الله دعاء العبد الا اذا طلب ذلك من المتوسل بهم : كان كفرا والعياذ بالله ..

« قال الشوكانى فى « الدر النضيد » : « فان قلت ان هؤلاء القبوريين يعتقدون أن الله تعالى هو الضار النافع ، والخير والشر بيده ، وأنهم ان استغاثوا بالأموات قصدوا انجاز ما يطلبونه من الله .. قلت : وهكذا كانت الجاهلية ، فانهم كانوا يعلمون أن الله هو الضار النافع ، وانما عبدوا أصنامهم لتقربهم الى الله زلفى .. ومن زعم أنه لم يقع منه الا مجرد التوسل ، وهو يعتقد من تعظيم ذلك الميت ما لا يجوز اعتقاده فى أحد من المخلوقين ، ويتقرب الى الأموات بالذبائح والنذور ، ويناديهم مستغيثا بهم عند الحاجة ، فهذا كاذب فى دعواه أنه متوسل فقط » ا هـ .

« وأما حديث : « توسلوا بجاهى فان جاهى عند الله عظيم » .. فقد تعرض له ابن تيمية بروايات أخرى قال : « وروى بعض الجهال عن النبى ﷺ أنه قال : « اذا سألتم الله فأسلوه بجاهى فان جاهى عند الله عظيم » .. وهذا الحديث كذب ليس فى شىء من كتب المسلمين التى يعتمد عليها أهل الحديث .. مع أن جاهه ﷺ عند الله تعالى أعظم من جاه جميع الأنبياء والمرسلين » ..

وقال : « وقد تقدم أن ما يذكره بعض العامة من قوله ﷺ :

« اذا كانت لكم حاجة فاسألوا الله بجاهى » .. حديث باطل لم يروه أحد من أهل العلم ، ولا هو فى شىء من كتب الحديث » ..

وقال : « وأما ما يروى عن النبى ﷺ : « اذا أعيتكم الامور فعليكم بأهل القبور ، فاستعينوا بأهل القبور » .. فهو حديث كذب مفترى على النبى ﷺ باجماع العارفين بحديثه ، ولم يروه أحد من العلماء ، ولا يوجد فى شىء من كتب الحديث المعتمدة »(٥٩) .

* * *

● ويقول البعض : صحيح أنه لم يثبت فى السنة ما يدل على استحباب التوسل بذوات الأنبياء والصالحين .. ولكن ما المانع منه اذا فعلناه على طريق الاباحة ، لأنه لم يأت نهى عنه ؟ ..

ويرد فضيلة الشيخ محمد ناصر الدين الألبانى على هذه الشبهة قائلا :

« هذه شبهة طالما سمعناها ممن يريد أن يتخذ موقفا وسطا بين الفريقين لكى يرضى كلا منهما ، وينجو من حملاتهما عليه .. والجواب : يجب أن لا ننسى فى هذا المقام معنى الوسيلة .. اذ هى التى يتوصل بها الى تحصيل المقصود ..

« ولا يخفى أن الذى يراد التوصل اليه ، اما أن يكون دينيا ، أو دنيويا ..

« وعلى الأول ، لا يمكن معرفة الوسيلة التى توصل الى الأمر الدينى الا من طريق شرعى ، فلو ادعى رجل أن توسله الى الله تعالى بآية من آياته الكونية العظيمة كالليل والنهار — مثلا — سبب لاستجابة الدعاء .. لرد عليه ذلك الا أن يأتى بدليل ..

« ولا يمكن أن يقال حينئذ باباحة هذا التوسل ، لأنه كلام ينقض بعضه بعضا .. اذ أنك تسميه توسلا ، وهذا لم يثبت شرعا ، وليس له طريق آخر فى اثباته ..

---

(٥٩) الفتاوى الأمينية ، للشيخ امين محمود خطاب ، ص ٢٣ — ٢٨ بتصرف .

« وهذا بخلاف القسم الثانى من القسمين المذكورين فهو الدنيوى ، فان أسبابه يمكن أن تعرف بالعقل أو بالعلم أو بالتجربة ونحو ذلك .. مثل الرجل يتاجر ببيع الخمر ، فهذا سبب معروف للحصول على المـال ، فهو وسيلة لتحقيق المقصود وهو المـال .. ولكن هذه الوسيلة نهى الله عنها ، فلا يجوز اتباعها بخلاف ما لو تاجر بسبب لم يحرمه الله عز وجل ، فهو مباح ..

« أما السبب المدعى أنه يقرب الى الله، وأنه أرجى فى قبـول الدعاء ، فهذا سبب لا يعرف الا بطريق الشرع ، فحين يقال : بأن الشرع لم يرد بذلك ، لم تجز تسميته وسيلة حتى يمكن أن يقال انه مباح التوسل به ..

« وشىء ثان .. وهو أن التوسل ـ الذى سلمنا بعدم وروده ـ قد جاء فى الشرع ما يغنى عنه[٦٠] ..

« فما الذى يحمل المسلم على اختيار هذا التوسل الذى لم يرد ، والاعراض عن التوسل الذى ورد ؟ .. وقد اتفق العلماء على أن البدعة اذا صادمت سنة فهى بدعة ضلالة اتفاقا .. وهذا التوسل من هذا القبيل ، فلم يجز التوسل به ، ولو على طريق الاباحة دون الاستحباب !!

« وأمر ثالث .. وهو أن التوسل بالذوات ، يشبه توسل الناس ببعض المقربين الى الملوك والحكام ، والله تبارك وتعالى ليس كمثله شىء باعتراف المتوسلين بذلك ، فاذا توسل المسلم اليه تعالى بالأشخاص ، فقد شبهه عملا بأولئك الملوك والحكام .. وهذا غير جائز »[٦١] .

فالتوسل بغير أسماء الله تعالى وصفاته ، أو بغير العمل الصالح الذى يقوم به المتوسل ، أو التوسل بغير دعاء رجل صالح يدعو له .. غير جائز ولا مشروع ، لأنه لم يرد فيه دليل فتقوم به الحجة ..

---

(٦٠) وهو التوسل باسم من اسماء الله تعالى ، أو بصفة من صفاته ، والتوسل بعمل صالح قام به الداعى ، أو بدعاء رجل صالح يدعو للمتوسل .

(٦١) انظر : التوسل : « أنواعه وأحكامه » ، للشيخ ناصر الدين الألبانى ، ط بيروت ، ١٣٩٧ هـ ، ص ١٣٦ وما بعدها .

وقد أنكره العلماء المحققون فى العصور الاسلامية المتعاقبة .. وان كان الامام أحمد يجيز التوسل بالرسول ﷺ وحده فقط ، كما يجيز الشوكانى التوسل به وبغيره من الأنبياء والصالحين .. فان أبا حنيفة يمنع ذلك .. فقد جاء فى « الدر المختار » (٦٢) ما نصه : عن أبى حنيفة : لا ينبغى لأحد أن يدعو الله الا به ، والدعاء المأذون فيه ، المأمور به ما استفيد من قوله تعالى : « **ولله الأسماء الحسنى فادعوه بها** »(٦٣) .

ويقول الزبيدى فى « شرح الاحياء »(٦٤) : « كره أبو حنيفة وصاحباه أن يقول الرجل : أسألك بحق فلان ، أو بحق أنبيائك ورسلك ، أو بحق البيت الحرام والمشعر الحرام ، ونحو ذلك .. اذ ليس لأحد على الله حق .. وكذلك كره أبو حنيفة ومحمد أن يقول الداعى : اللهم انى أسألك بمعاقد العز من عرشك ، وأجازه أبو يوسف لما بلغه الأثر فيه » .

ويقول بشر بن الوليد : حدثنا أبو يوسف قال أبو حنيفة : « لا ينبغى لأحد أن يدعو الله الا به ، وأكره أن يقول : بمعاقد العز من عرشك ، أو بحق خلقك » ، وهو قول أبى يوسف .. قال أبو يوسف : « معقد العز من عرشه هو الله ، فلا أكره هذا ، وأكره أن يقول : بحق فلان ، أو بحق أنبيائك ورسلك ، وبحق البيت الحرام والمشعر الحرام » ..

ويقول القدورى : « المسألة بخلقه لا تجوز ، لأنه لا حق للخلق على الخالق ، فلا تجوز وفاقاً » .

* * *

● وسئل صاحب « الفتاوى الأمينية » عن حكم نداء الرسول ﷺ والأولياء والمشايخ .. كأن يقول الانسان : يارسول الله أنت المعتمد ، ياسيد يابدوى مدد ، نظرة ياست .. ونحو ذلك ..

---

(٦٢) الدر المختار جـ ٢ ، ص ٦٣٠ (٦٣) الأعراف : ١٨٠

(٦٤) شرح الاحياء ، جـ ٢ ص ٢٨٥

فأجاب رحمه الله : « ان من نادى غير الله بالصيغة المذكورة فى السؤال ونحوها .. ان اعتقد بأن غير الله تعالى يضر وينفع ، فهو شرك .

« وان اعتقد التبرك بهم فقط .. فهو حرام وليس بشرك ..

« قال الله تعالى للنبى ﷺ : **«قل لا أملك لنفسى نفعاً ولا ضرا»**(٦٥)

« كما قال : **« قل انى لا أملك لكم ضرا ولا رشدا »**(٦٦) .

« واذا كان النبى ﷺ لا يملك لنفسه ولا لغيره نفعا ولا ضرا .. فغيره من النبيين والأولياء من باب أولى .. فالمطلوب سؤال الله تعالى فى كل الأحوال ..

« قال تعالى : **« واذا سألك عبادى عنى فانى قريب ، أجيب دعوة الداع اذا دعان ، فليستجيبوا لى وليؤمنوا بى لعلهم يرشدون »**(٦٧) .

« وفى حديث ابن عباس — رضى الله عنهما — أن النبى ﷺ قال : « اذا سألت فاسأل الله ، واذا استعنت فاستعن بالله » (٦٨) .

ثم يقول فضيلته : « ويجوز سؤال الصالحين الأحياء فيما يقدرون عليه كطلب الدعاء منهم .. لا ما لا يقدرون عليه كشفاء المريض وطلب الرزق ونحو ذلك .. فان الله تعالى يقول : **« وان يمسسك الله بضر فلا كاشف له الا هو ، وان يردك بخير فلا راد لفضله »**(٦٩) .

« ويقول تعالى : **« قل ادعوا الذين زعمتم من دونه فلا يملكون كشف الضر عنكم ولا تحويلا . أولئك الذين يدعون يبتغون الى ربهم الوسيلة أيهم أقرب ويرجون رحمته ويخافون عذابه ، ان عذاب ربك كان محذورا »**(٧٠) اهـ .

* * *

---

(٦٥) الأعراف : ١٨٨ (٦٦) الجن : ٢١

(٦٧) البقرة : ١٨٦ (٦٨) أخرجه أحمد والترمذى .

(٦٩) يونس : ١٠٧

(٧٠) الفتاوى الأمينية ، للشيخ أمين محمود خطاب السبكى ، جـ ١ ، ص ٢٢ ، ٢٣ — والآية : من سورة الاسراء : ٥٦ ، ٥٧

● ويقول فضيلة الشيخ عبد اللطيف مشتهرى : « ومن الخداع من تراهم يقصدون الى تلك الأماكن ويذكرون لك أننا لا نقول « مدد » ، ولا نقبل الأعتاب ، ولا نتمسح ، ولا نفعل شيئا من البدع التى ذكرتها ..

« ونقول له : « ياأخى ، لقد علق الله الخير لهذه الأمة على أن تأمر بالمعروف وتنهى عن المنكر .. قال رسول الله ﷺ : « من لم تنهه صلاته عن الفحشاء والمنكر لم يزدد من الله الا بعدا » .. فأين أنت من أمر المبتدعين بالمعروف ونهيهم عن المنكر ؟

« بل انا نراك مقرا لما يفعله هؤلاء بركونك اليهم وسلامك عليهم وابتسامك لهم .. والله يقول :« **ولا تركنوا الى الذين ظلموا فتمسكم النار** »(٧١) .. والقاعدة الفقهية : « أزل المنكر ، فان لم يزل فزل » ..

« وان من علامات الساعة رجالا يرون المنكر ولا ينكرونه ، وهم من شرار القوم عند الله ، لأن الساكت على المعصية مشترك فيها ، وكاتم الحق شيطان أخرس ..

« وبما أن قبور معظم من نسبه الناس الى الولاية مملوءة بالبدع والخرافات ، وأنواع الشرك ، والاستغاثة بغير الله ، والتوسل الى الولى فيما لا يطلب الا من الله ، والاستشفاع به وشد الرحال اليه ، وكل هذا منعه الاسلام .. فلأجل ذلك ينبغى البعد عن غشيان هذه المساجد والأماكن منعا لتوجه المسئولية والتقصير فيها ..

« وأخيرا ، لزم التنويه بأن زيارة المقابر الخالية من البدع بغرض أن ينفع الزائر نفسه بالعبرة ، وأن ينفع الميت بالدعاء له والاستغفار مطلوب .. وقد قال تعالى : « **والذين جاءوا من بعدهم يقولون ربنا اغفر لنا ولاخواننا الذين سبقونا بالايمان** »(٧٢) .

« وانما سنت الزيارة للمقابر لأخذ العبرة والعظة ، وحتى يرى الانسان مصيره الذى لا مفر منه .. لذا وجب أن يكون مكان العبرة

---

(٧١) هود : ١١٣ (٧٢) الحشر : ١٠

هذا متسما بالهدوء ، ومتحليا بالتجرد من أعمال الدنيا الفانية »[٧٣] اهـ .

* * *

ولله در الامام ابن القيم حيث يقول : « نزح بحرين بغربالين ، وحفر بئرين بابرتين ، وكنس أرض الحجاز فى يوم شديد الهواء بريشتين ، وغسل عبدين أسودين حتى يصيرا أبيضين : أهون على من أن أقف على باب غير الله يضيع فيه ماء وجهى » ..

ويقول الشاعر :

لا تسألن بنى آدم حاجة وسل الذى أبوابه لا تحجب
الله يغضب ان تركت سؤاله وبنى آدم حين يسئل يغضب

وفى الحديث الشريف .. قال رسول الله ﷺ : « من لم يسأل الله يغضب عليه » ..

● كيف كان الرسول صلى الله عليه وسلم يتوسل الى ربه ؟

التوسل الى الله تعالى هو التقرب اليه بعمل يرضاه .. وليس مثل الصلاة والدعاء قربى من الله ..

فالدعاء والتضرع ، والاستعانة والاستغاثة .. كلها من القرب التى تقرب العبد من ربه ، وتدخل كلها فى معنى التوسل ..

لذا كان رسول الله ﷺ اذا حزبه أمر يفزع الى الصلاة ، ويقول : « أرحنا بها يابلال » ..

وكان ﷺ يعرف مقام ربه وقدره ، ولهذا كان يدعوه بأسمائه تعالى وصفاته .. يتوسل اليه ويتضرع ، ويستغيث به ويستنصره ، خاشعا متذللا ويقول فى دعائه : « أنت رب المستضعفين وأنت ربى » ، ويقول : « اللهم أنت ربى وأنا عبدك » ..

---

(٧٣) هذه دعوتنا ، مرجع سابق ، ص ٢٠٦

لم يقل بحقى عليك يارب ، أو بجاهى عندك .. ولم يتوسل — ﷺ — بالحقيقة المحمدية التى زعموها .. انما كان دعاؤه كله ، دعاء من يعرف قدره الى جانب قدر الله وعظمته ..

وقدر الرسول ﷺ أرفع الأقدار كلها ، ومنزلته عند الله أعظم المنازل .. انه — ﷺ — أرفع قدرا وأعظم منزلة من جميع المخلوقات .. أرفع قدرا وأعظم منزلة من الملائكة ، والانس والجن .. ولكنه ﷺ عرف قدره الى جانب قدر الله وعظمته ، فلم يتجاوز فى دعائه الى ما ليس له ..

فصلى الله وسلم وبارك عليك ياسيدى يارسول الله ، فقد بعثت معلماً ..

ماتت خديجة رضى الله عنها ، وأبو طالب فى عام واحد ..

ولما مات أبو طالب .. نالت قريش من رسول الله ﷺ من الأذى ما لم تكن تنال منه فى حياة عمه أبى طالب .. فخرج رسول الله ﷺ الى الطائف ، يلتمس النصرة من ثقيف ، والمنعة بهم من قومه ، ورجاء أن يقبلوا منه ما جاءهم به من الله عز وجل ، فخرج اليهم وحده ..

ويحدثنا ابن هشام عن هذا فيقول : « لما انتهى رسول الله ﷺ الى الطائف .. عمد الى نفر من ثقيف .. هم يومئذ سادة ثقيف وأشرافهم ، وهم اخوة ثلاثة : عبد ياليل بن عمرو بن عمير ، ومسعود بن عمرو بن عمير ، وحبيب بن عمرو بن عمير .... وعند أحدهم امرأة من قريش من بنى جمح .. فجلس اليهم رسول الله ﷺ ، فدعاهم الى الله وكلمهم بما جاءهم له من نصرته على الاسلام ، والقيام معه على من خالفه من قومه ..

فقال له أحدهم : أنا أمرط ثياب الكعبة ان كان الله أرسلك !!

وقال الآخر : أما وجد الله أحدا يرسله غيرك ؟ !

وقال الثالث : والله لا أكلمك أبدا ، لئن كنت رسولا من الله كما تقول ، لأنت أعظم خطرا من أن أرد عليك الكلام ، ولئن كنت تكذب على الله ، ما ينبغى لى أن أكلمك !!

فقام رسول الله ﷺ من عندهم وقد يئس من خير ثقيف ، وقد قال لهم — فيما ذكر لى — : اذا فعلتم ما فعلتم فاكتموا عنى .. وكره رسول الله ﷺ أن يبلغ قومه عنه فيذئرهم[٧٤] ذلك عليه[٧٥] ..

قال ابن هشام : قال عبيد بن الأبرص :

ولقـد أتانى عن تميم أنهم ذئروا لقتلى عامر وتعصبوا

لم تفعل ثقيف ما كان يرجوه الرسول ﷺ من النصرة والمنعة .. ولكنهم أغروا به سفهاءهم وعبيدهم ، يسبونه ويصيحون به .. حتى اجتمع عليه الناس ، والجأوه الى حائط[٧٦] لعتبة بن ربيعة وشيبة بن ربيعة ، وهما فيه .. ورجع عنه من سفهاء ثقيف من كان يتبعه ، فعمد الى ظل حبلة من عنب[٧٧] فجلس فيه ، وابنا ربيعة ينظران اليه ويريان ما لقى من سفهاء أهل الطائف ، وقد لقى رسول الله ﷺ — فيما ذكر لى — المرأة التى من بنى جمح فقال لها : ماذا لقينا من أحمائك ؟

يقول ابن هشام : « فلما اطمأن رسول الله ﷺ قال — فيما ذكر لى : « اللهم اليك أشكو ضعف قوتى ، وقلة حيلتى وهوانى على الناس .. يا أرحم الراحمين ، أنت رب المستضعفين ، وأنت ربى ، الى من تكلنى ؟ الى بعيد يتجهمنى ؟ أم الى عدو ملكته أمرى ؟ .. ان لم يكن بك على غضب فلا أبالى ، ولكن عافيتك هى أوسع لى .. أعوذ بنور وجهك الذى أشرقت له الظلمات ، وصلح عليه أمر الدنيا والآخرة من أن ينزل بى غضبك ، أو يحل على سخطك ، لك العتبى حتى ترضى ، ولا حول ولا قوة الا بك »[٧٨] .

ويحدثنا ابن هشام عن موقف آخر .. وقف فيه الرسول ﷺ يناشد ربه النصر الذى وعده .. عندما خرجت قريش لمقاتلة المسلمين

---

(٧٤) أى يثيرهم ويجرئهم ...
(٧٥) الحائط : البستان .
(٧٦) أى شجرة عنب .
(٧٧) الأحماء : أقارب الزوج .
(٧٨) السيرة النبوية ، لابن هشام ، ط دار التراث العربى ، ص ٢٦٤ ، ٢٦٥

فى غزوة بدر .. فبعد أن عدل — ﷺ — صفوف المسلمين ، رجع الى العريش الذى أقاموه له فدخله ومعه أبو بكر الصديق رضى الله عنه ، ليس معه فيه غيره .. يقول ابن هشام :

« ورسول الله ﷺ يناشد ربه ما وعده من النصر ، ويقول فيما يقول : « اللهم ان تهلك هذه العصابة اليوم لا تعبد » . وأبو بكر يقول : يانبى الله ، بعض مناشدتك ربك ، فان الله منجز لك ما وعدك ..

وقد خفق رسول الله ﷺ خفقة وهو فى العريش ، ثم انتبه فقال : أبشر يا أبا بكر ، أتاك نصر الله ، هذا جبريل آخذ بعنان فرس يقوده ، على ثناياه النقع »(٧٩) .

لقد استنجد الرسول — ﷺ — بالله مباشرة .. وظل يضرع اليه تعالى حتى سقط — فيما يروى — رداءه عن منكبيه ، وأبو بكر رضى الله عنه خلفه يناشده أن يهدأ بالا ، فان الله تعالى سوف ينجز له وعده بالنصر .. لم يتخذ الرسول بينه وبين الله واسطة ، بل التجأ اليه وحده بالدعاء والتضرع .. ولهذا جاءه المدد ملائكة السماء يقودهم جبريل — عليه السلام — آخذا بعنان فرسه يقوده وعلى ثناياه النقع ..

لم يقل بحقى عليك يارب ، أو بجاهى عندك ، ولم يتوسل اليه — ﷺ بغير أسمائه وصفاته ..

وعن ابن عباس رضى الله عنهما قال : بعثنى العباس الى رسول الله ﷺ ، فأتيته ممسيا وهو فى بيت خالتى ميمونة .. فقام يصلى من الليل ، فلما صلى ركعتى الفجر قبل صلاة الصبح قال : « اللهم انى أسألك رحمة من عندك تهدى بها قلبى ، وتجمع بها شملى ، وتلم بها شعثى ، وترد بها الفتن عنى ، وتصلح بها دينى ، وتحفظ بها غائبى ، وترفع بها شاهدى ، وتزكى بها عملى ، وتبيض بها وجهى ، وتلهمنى بها رشدى ، وتعصمنى بها من كل سوء ..

« اللهم أعطنى ايمانا صادقا ، ويقينا ليس بعده كفر ، ورحمة أنال بها شرف كرامتك فى الدنيا والآخرة ..

---

(٧٩) المرجع السابق ، ص ٤١٦

« اللهم انى أسألك الفوز عند القضاء ، ومنازل الشهداء ، وعيش السعداء ، والنصر على الأعداء ، ومرافقة الأنبياء ..

« اللهم انى أنزل بك حاجتى وان ضعف رأيى وقلت حيلتى وقصر عملى وافتقرت الى رحمتك .. فأسألك ياكافى الأمور ، وياشافى الصدور ، كما تجير بين البحور أن تجيرنى من عذاب السعير ، ومن دعوة الثبور ، ومن فتنة القبور .

« اللهم ما قصر عنه رأيى ، وضعف عنه عملى ، ولم تبلغه نيتى وأمنيتى من خير وعدته أحدا من عبادك ، أو خير أنت معطيه أحدا من خلقك ، فانى أرغب اليك فيه ، وأسألكه يارب العالمين ..

« اللهم اجعلنا هادين مهتدين ، غير ضالين ولا مضلين ، حربا لأعدائك ، وسلما لأوليائك ، نحب بحبك من أطاعك من خلقك ، ونعادى بعداوتك من خالفك من خلقك ..

« اللهم هـذا الدعاء وعليك الاجابة ، وهـذا الجهد وعليك التكلان ، وانا لله وانا اليه راجعون ، ولا حول ولا قوة الا بالله العلى العظيم ، ذى الحبل الشديد ، والأمر الرشـيد .. أسألك الأمن يوم الوعيد ، والجنة يوم الخلود ، مع المقربين الشهود ، والركع السجود ، الموفين بالعهود ، انك رحيم ودود ، وأنت تفعل ما تريد ..

« سبحان الذى لبس العز وقال به .. سبحان الذى تعطف بالمجد وتكرم به .. سبحان الذى لا ينبغى التسبيح الا له .. سبحان ذى الفضل والنعم .. سبحان ذى العزة والكرم .. سبحان الذى أحصى كل شىء بعلمه ..

« اللهم اجعل لى نورا فى قلبى ، ونورا فى قبرى ، ونورا فى سمعى ، ونورا فى بصرى ، ونورا فى شعرى ، ونورا فى بشرى ، ونورا فى لحمى ، ونورا فى دمى ، ونورا فى عظامى ، ونورا من بين يدى ، ونورا من خلفى ، ونورا عن يمنى ، ونورا عن شمالى ، ونورا من فوقى ، ونورا من تحتى ..

« اللهم زدنى نورا ، وأعطنى نورا ، واجعل لى نورا »(٨٠) .

هكذا كان الرسول ﷺ يضرع الى ربه .. يتوسل اليه ويستغيث به .. بالخشوع كله ، وبالتواضع كله ، فقد عرف مقام ربه .. فصلى الله وسلم وبارك عليه ، فقد بعثه تعالى للناس معلما ومرشدا ..

وهكذا كان شأن المسلمين فى الصدر الأول للاسلام .. يتضرعون الى الله تعالى بالخشية والخضوع ، والسكون والهدوء ، وحسن الأدب مع الحق تبارك وتعالى .. رغبة رهبة .. فهو سبحانه رب العالمين ، خالق الخلق ورازقه .. وهو القائل : **« ادعوا ربكم تضرعا وخفية »**(٨١) والقائل : **« انهم كانوا يسارعون فى الخيرات ويدعوننا رغبا ورهبا »**(٨٢) .

* * *

● **الدعاء .. فى الاسلام :**

يقول الله تعالى : **« واذا سألك عبادى عنى فانى قريب ، أجيب دعوة الداع اذا دعان ، فليستجيبوا لى وليؤمنوا بى لعلهم يرشدون »**(٨٣) .

سأل بعضهم الرسول ﷺ : أقريب ربنا فنناجيه ، أم بعيد فنناديه .. فقال جل شأنه : اذا سألك — يامحمد — عبادى أين أنا ؟ فانى قريب منهم ، أسمع دعاءهم ، وأجيب دعاء الداعى منهم اذا دعانى ، فليستجيبوا لى بالطاعة ، وليصدقوا أنى أجزل لهم الثواب والكرامة .. وبهذا يهتدوا الى طريق الرشاد ..

وقال جل وعلا : **« وقال ربكم ادعونى أستجب لكم ، ان الذين يستكبرون عن عبادتى سيدخلون جهنم داخرين »**(٨٤) .

فالله تعالى يقول : اعبدونى وأخلصوا لى العبادة ، أجب دعاءكم .. فان الذين يتعظمون عن افرادى بالعبادة والألوهية سأدخلهم جهنم صاغرين ..

---

(٨٠) رواه الطبرانى ..
(٨١) الأعراف : ٥٥
(٨٢) الأنبياء : ٩٠
(٨٣) البقرة : ١٨٦
(٨٤) غافر : ٦٠

وهو تعالى يسمى الدعاء عبادة .. ولهذا قال رسول الله ﷺ فيما يرويه النعمان بن بشير رضى الله عنه : « ان الدعاء هو العبادة » — ثم قرأ الآية(٨٥) .

وقال ﷺ : « الدعاء مخ العبادة »(٨٦) .

ويقول الله تعالى : **« ادعوا ربكم تضرعا وخفية ، انه لا يحب المعتدين »**(٨٧) .

أى أخلصوا الدعاء لربكم ، تذللا واستكانة لطاعته ، لا جهارا ومراءاة ، فهو تعالى — لا يحب المجاوزين الحد فى الدعاء ، برفع الصوت والصياح .. ولهذا يقول النبى ﷺ : « أيها الناس ، ارفقوا على أنفسكم فانكم لا تدعون أصماً ولا غائبا ، انكم تدعون سميعا بصيرا ، وهو معكم ، والذى تدعونه أقرب الى أحدكم من عنق راحلته » ..

ويقول جل شأنه : **« قل ادعوا الله أو ادعوا الرحمن ، أيا ما تدعوا فله الأسماء الحسنى ، ولا تجهر بصلاتك ولا تخافت بها وابتغ بين ذلك سبيلا »**(٨٨) .

سمع أبو جهل الرسول ﷺ يدعو فى صلاته : ياالله ، يارحمن .. فقال : ان محمدا ينهانا أن نعبد الهين وهو يدعو الهاً آخر .. فنزلت هذه الآية .. فالله تعالى يقول لنبيه ﷺ : قل — يامحمد — لهؤلاء المشركين ، المنكرين لاسم الرحمن : ادعوا الله — أيها القوم — أو ادعوا الرحمن بأى أسمائه جل وعلا تدعوا ربكم فانما تدعون الهاً واحدا ، له الأسماء الحسنى ، ولا تجهر — يامحمد — بقراءتك فى صلاتك فيؤذيك المشركون ، ولا تخفض صوتك حتى لا يسمع أصحابك .. واطلب طريقا وسطا بين الخفض والاعلان . يقول ابن عباس : كان رسول الله ﷺ يرفع صوته بالقراءة ، فاذا سمعه المشركون سبوا القرآن ومن أنزله .. فنزلت هذه الآية ..

---

(٨٥) رواه أصحاب السنن .
(٨٦) رواه أنس .
(٨٧) الأعراف : ٥٥
(٨٨) الاسراء : ١١٠

والمقصود .. أن يكون الدعاء .. وأن تكون الصلاة والعبادات كلها بأدب وخشية وخضوع ، وسكون وهدوء ، ورغبة ورهبة ..

● ومن شروط الدعاء .. افراد الله وحده به .. فعن ابن عباس رضى الله عنهما قال : كنت خلف النبى ﷺ يوما فقال : « ياغلام ، انى أعلمك كلمات : احفظ الله يحفظك ، احفظ الله تجده تجاهك .. اذا سألت فاسأل الله ، واذا استعنت فاستعن بالله .. واعلم أن الأمة لو اجتمعت على أن ينفعوك بشىء لم ينفعوك الا بشىء قد كتبه الله لك ، وان اجتمعوا على أن يضروك بشىء لم يضروك الا بشىء قد كتبه الله عليك .. رفعت الأقلام وجفت الصحف »(٨٩) .

● وأن يخلص فى دعائه لله تعالى .. لقوله جل شأنه : « **فادعوا الله مخلصين له الدين** »(٩٠) .. فانعدام الاخلاص ، أو دخول الرياء على النفس يفسد الدعاء على صاحبه ولا يستجيب الله له .

● وأن يقدم بين يدى دعائه عمل صالح .. ليكون فى ذلك وسيلة الى الاجابة ..

● وأن يتجنب الحرام فى مأكله ومشربه وملبسه .. لأن ملابسة المعصية مقتضية لعدم الاجابة .. يقول تعالى : « **انما يتقبل الله من المتقين** »(٩١) .

ويروى عن ابن عباس — رضى الله عنهما — قال : تليت هذه الآية عند رسول الله ﷺ : « **يا أيها الناس كلوا مما فى الأرض حلالا طيبا** »(٩٢) ، فقام سعد ابن أبى وقاص — رضى الله عنه — فقال : يارسول الله ، ادع الله أن يجعلنى مستجاب الدعوة ، فقال له النبى ﷺ : « ياسعد ، أطب مطعمك تكن مستجاب الدعوة ، والذى نفس محمد بيده : ان العبد ليقذف اللقمة الحرام فى جوفه ما يتقبل منه عمل أربعين يوما ، وأيما عبد نبت لحمه من سحت فالنار أولى به » ..

---

(٨٩) رواه الترمذى .
(٩٠) غافر : ١٤
(٩١) المائدة : ٢٧
(٩٢) البقرة : ١٦٨

وعن أبى هريرة رضى الله عنه قال : قال رسـول الله ﷺ : « ان الله طيب لا يقبل الا طيبـا ، وان الله أمر المؤمنين بما أمر به المرسلين فقال : « **يا أيها الرسل كلوا من الطيبات واعملوا صالحا ، انى بما تعملون عليم** »[٩٣] وقـال : « **يا أيها الذين آمنوا كلوا من طيبات ما رزقناكم** »[٩٤] .. ثم ذكر الرجل يطيل السفر ، أشعث أغبر يمد يديه الى السماء : يارب يارب ، ومطعمه حرام ، ومشربه حرام ، وملبسه حرام ، وغذى بالحرام ، فأنى يستجاب له » ؟ ![٩٥]

● وأن لا يدعو بائم ولا قطيعة رحم .. يقول رسول الله ﷺ : « لا يزال يستجاب للعبد ما لم يدع باثم أو قطيعة رحم ما لم يستعجل » قيل : يارسول الله ، ما الاستعجال ؟ قال : « يقول قد دعوت وقد دعوت فلم أر يستجيب لى فيستحسر عند ذلك ويدع الدعاء »[٩٦] .

وعن أبى هريرة رضى الله عنه قال : قال رسـول الله ﷺ : « لا يتمنى أحدكم الموت ولا يدع به من قبل أن يأتيه ، انه اذا مات أحدكم انقطع عمله ، وانه لا يزيد المؤمن عمره الا خيرا»[٩٧] .

وعن أنس رضى الله عنه : أن رسول الله ﷺ عاد رجلا من المسلمين قد خفت [أى ضعف] فصار مثل الفرخ [أى ولد الطائر] فقال له رسول الله ﷺ : « هل كنت تدعو بشىء — أو تسأله اياه » ؟ ، قال : نعم ، كنت أقول : اللهم ما كنت معاقبى به فى الآخرة فعجله لى فى الدنيا .. فقال رسول الله ﷺ : « سبحان الله ، لا تطيقه — أو لا تستطيعه — أفلا قلت : اللهم آتنا فى الدنيا حسنة وفى الآخرة حسنة وقنا عذاب النار » ؟ .. قال : فدعا الله له فشفاه[٩٨] ..

وعن جابر رضى الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « لا تدعوا

---

(٩٣) المؤمنون : ٥١ (٩٤) البقرة : ١٧٢
(٩٥) رواه مسلم والترمذى .
(٩٦) رواه مسلم ، ويستحسر : أى ينقطع عن الدعاء .
(٩٧) رواه مسلم . (٩٨) رواه مسلم .

على أنفســكم ، ولا تدعوا على أولادكم ، ولا تدعوا على أموالكم ، لا توافقوا من الله ساعة يسئل فيها عطاء فيستجيب لكم »[٩٩] .

● ويبشرنا أبو الدرداء رضى الله عنه : أن رسول الله ﷺ كان يقول : « دعوة المرء المسلم لأخيه بظهر الغيب مستجابة ، عند رأسه ملك موكل ، كلمــا دعا لأخيه بخــير قال الملك الموكل به : آمين ، ولك بمثل »[١٠٠] .

وعن أبى هريرة رضى الله عنه : « ان العبد لا يخطئه من الدعاء الا احدى ثلاث : اما ذنب يغفر له ، واما خير يعجل له ، واما خير يدخر له » ..

ويقول ابن مسعود : « سلوا الله تعالى من فضله ، فان الله تعالى يحب أن يسئل ، وأفضل العبادة انتظار الفرج » ..

وفى الحديث القدسى الذى يرويه أبو ذر الغفارى رضى الله عنه يقول تعالى : « ياعبادى انى حرمت الظلم على نفسى وجعلته بينكم محرما ، فلا تظالموا ..

« ياعبادى ، كلكم ضال الا من هديته ، فاستهدونى أهدكم ..

« ياعبادى ، كلكم جائع الا من أطعمته ، فاستطعمونى أطعمكم ..

« ياعبادى ، كلكم عار الا من كسوته ، فاستكسونى أكسكم ..

« ياعبادى ، انكم تخطئون بالليل والنهار ، وأنا أغفر الذنوب جميعا ، فاستغفرونى أغفر لكم ..

« ياعبادى ، انكم لن تبلغوا ضرى فتضرونى ، ولن تبلغوا نفعى فتنفعونى ..

« ياعبادى ، لو أن أولكم وآخركم ، وانسكم وجنكم : كانوا على أتقى قلب رجل واحد منكم ، ما زاد ذلك فى ملكى شيئا ..

« ياعبادى ، لو أن أولكم وآخركم ، وانسكم وجنكم ، كانوا على أفجر قلب رجل واحد منكم ، ما نقص ذلك من ملكى شيئا ..

---

(٩٩) رواه مسلم .

(١٠٠) رواه مسلم .

« ياعبادى ، لو أن أولكم وآخركم ، وانسكم وجنكم ، قاموا فى صعيد واحد فسألونى فأعطيت كل انسان مسألته ، ما نقص ذلك مما عندى ، الا كما ينقص المخيط اذا أدخل البحر ..

« ياعبادى ، انما هى أعمالكم ، أحصيها لكم ثم أوفيكم اياها ، فمن وجد خيرا فليحمد الله ، ومن وجد غير ذلك فلا يلومن الا نفسه »[١٠١]

* * *

« ويحدثنا الامام الغزالى عن آداب الدعاء[١٠٢] فيقول : « آداب الدعاء ، وهى عشرة :

● الأول : « أن يترصد لدعائه الأوقات الشريفة ، كيوم عرفة من السنة ، ورمضان من الشهر ، ويوم الجمعة من الأسبوع ، ووقت السحر من ساعات الليل .. قال تعالى : « **وبالأسحار هم يستغفرون** »[١٠٣] .. وقال ﷺ : « ينزل الله تعالى كل ليلة الى سماء الدنيا حين يبقى ثلث الليل الأخير فيقول عز وجل : من يدعونى فأستجيب له ؟ ، من يسألنى فأعطيه ؟ ، من يستغفرنى فأغفر له » .

« وقيل ان يعقوب عليه السلام انما قال : « **سوف أستغفر لكم ربى ، انه هو الغفور الرحيم** »[١٠٤] ليدعو فى وقت السحر ، فقيل انه قام فى وقت السحر يدعو وأولاده يؤمنون خلفه ، فأوحى الله عز وجل اليه : أنى قد غفرت لهم وجعلتهم أنبياء » ..

● الثانى « أن يغتنم الأحوال الشريفة .. قال أبو هريرة رضى الله عنه : « ان أبواب السماء تفتح عند زحف الصفوف فى سبيل الله تعالى ، وعند نزول الغيث ، وعند اقامة الصلوات المكتوبة ، فاغتنموا الدعاء فيها » ..

---

(١٠١) رواه مسلم .

(١٠٢) احياء علوم الدين ، لأبى حامد الغزالى ، ط . الشعب ، ج ٣ ص ٥٤٩ — ٥٥٧ بتصرف ..

(١٠٣) الذاريات : ١٨ (١٠٤) يوسف : ٩٨

« وقال مجاهد : « ان الصلاة جعلت فى خير الساعات ، فعليكم بالدعاء خلف الصلوات » .

« وقال ﷺ : « الدعاء بين الأذان والاقامة لا يرد » ..

« وقال ﷺ أيضا : « الصائم لا ترد دعوته » ..

« وبالحقيقة ، يرجع شرف الأوقات الى شرف الحالات أيضا .. اذ وقت السحر وقت صفاء القلب واخلاصه ، وفراغه من المشوشات ، ويوم عرفة ويوم الجمعة وقت اجتماع الهمم وتعاون القلوب على استدرار رحمة الله عز وجل ، فهذا أحد أسباب شرف الأوقات سوى ما فيها من أسرار لا يطلع البشر عليها ، وحالة السجود أيضا أجدر بالاجابة .. قال أبو هريرة رضى الله عنه : قال رسول الله ﷺ : « أقرب مايكون العبد من ربه عز وجل وهو ساجد ، فأكثروا فيه من الدعاء » ..

« وروى ابن عباس رضى الله عنهما عن النبى ﷺ أنه قال : « انى نهيت أن أقرأ القرآن راكعا أو ساجدا ، فأما الركوع فعظموا فيه الرب تعالى ، وأما السجود فاجتهدوا فيه بالدعاء ، فانه قمن أن يستجاب لكم » ..

● الثالث : « أن يدعو مستقبلا القبلة ، ويرفع يديه بحيث يرى بياض ابطيه .. روى جابر بن عبد الله رضى الله عنه « أن رسول الله ﷺ : أتى الموقف بعرفة واستقبل القبلة ولم يزل يدعو حتى غربت الشمس » ..

« وقال سلمان رضى الله عنه : قال رسول الله ﷺ : « ان ربكم حيى كريم يستحى من عبيده اذا رفعوا أيديهم اليه أن يردها صفرا » .

« وروى أنس رضى الله عنه « أنه ﷺ : كان يرفع يديه حتى يرى بياض أبطيه فى الدعاء ولا يشير بأصبعيه » ..

« وروى أبو هريرة رضى الله عنه « أنه ﷺ مر على انسان يدعو ويشير بأصبعيه السبابتين ، فقال ﷺ : « أحد أحد » — أى اقتصر على الواحدة ..

« وقال أبو الدرداء رضى الله عنه : « ارفعوا هـذه الأيدى قبل أن تغل بالأغلال » ..

« ثم ينبغى أن يمسح بهما على وجهه فى آخر الدعاء .. قال عمر رضى الله عنه : « كان رسول الله ﷺ اذا مد يديه فى الدعاء لم يردهما حتى يمسح بهما وجهه » ..

« وقال ابن عباس رضى الله عنهما : « كان ﷺ : اذا دعا ضم كفيه وجعل بطونهما مما يلى وجهه » .

« فهذه هيآت اليد ، ولا يرفع بصره الى السماء .. قال ﷺ : « لينتهين أقوام عن رفع أبصارهم الى السماء عند الدعاء ، أو لتخطفن أبصارهم » ..

● الرابع : « خفض الصوت بين المخافة والجهر .. لما روى أن أبا موسى الأشعرى رضى الله عنه قال : قدمت مع رسول الله ﷺ فلما دنونا من المدينة كبر وكبر الناس ورفعوا أصواتهم .. فقال النبى ﷺ : « يا أيها الناس ، ان الذى تدعون ليس بأصم ولا غائب ، ان الذى تدعون بينكم وبين أعناق ركابكم » ..

« قالت عائشـــة رضى الله عنها فى قوله عز وجل : **« ولا تجهر بصلاتك ولا تخافت بها وابتغ بين ذلك سبيلا »**[١٠٥] « أى بدعائك » ..

« وقد أثنى الله عز وجل على نبيه زكريا عليه الســلام قال : **« اذ نادى ربه نداء خفيا »**[١٠٦] .

« وقال عز وجل : **« ادعوا ربكم تضرعا وخفية »**[١٠٧] .

● الخامس : « أن لا يتكلف السجع فى الدعاء .. فان حال الداعى ينبغى أن يكون حال متضرع ، والتكلف لا يناسبه .. قال ﷺ : « سيكون قوم يعتدون فى الدعاء » ..

« وقد قال عز وجل : **« ادعوا ربكم تضرعا وخفية »** : قيل معناه التكلف للاسجاع ، والأولى أن لا يجاوز الدعوات المأثورة ، فانه قد يعتدى

---

(١٠٥) الاسراء : ١١٠ (١٠٦) مريم : ٣

(١٠٧) الأعراف : ٥٥

فى دعائه فيسأل ما لا تقتضيه مصلحته .. فما كل أحد يحسن الدعاء .. ولذلك روى عن معاذ رضى الله عنه أن العلماء يحتاج اليهم فى الجنة ، اذ يقال لأهـل الجنة : تمنوا ، فلا يدرون كيف يتمنون حتى يتعلموا من العلمـاء .

« وقد قال ﷺ : « اياكم والسجع فى الدعاء .. حسب أحدكم أن يقول : اللهم انى أسألك الجنة وما قرب اليها من قول وعمل ، وأعوذ بك من النار وما قرب اليها من قول وعمل » ..

« وفى الخبر : « سيأتى قوم يعتدون فى الدعاء والطهور » ..

« ومر بعض السلف بقاص يدعو بسجع فقال له : أعلى الله تبالغ ؟ ، أشهد لقد رأيت حبيبا العجمى يدعو وما يزيد على قوله : « اللهم اجعلنا جيدين ، اللهم لا تفضحنا يوم القيامة ، اللهم وفقنا للخير » ، والناس يدعون من كل ناحية وراءه ، وكان يعرف بركة دعائه .

« وقال بعضهم : ادع بلسان الذلة والافتقار ، لا بلسان الفصاحة والانطلاق ....

« واعلم أن المراد بالسجع ، هو المتكلف من الكلام ، فان ذلك لا يلائم الضراعة والذلة .. والا ففى الأدعية المأثورة عن رسول الله ﷺ كلمات متوازنة لكنها غير متكلفة ، كقوله ﷺ : « أسألك الأمن يوم الوعيد ، والجنة يوم الخلود ، مع المقربين الشهود ، والركع السجود ، الموفين بالعهود ، انك رحيم ودود ، وأنك تفعل ما تريد » .. وأمثال ذلك..

« فليقتصر على المأثور من الدعوات ، أو ليلتمس بلسان التضرع والخشـوع من غير سجع وتكلف .. فالتضرع هو المحبوب عند الله عز وجل » ..

● السادس : « التضرع والخشوع ، والرغبة والرهبة .. قال الله تعالى : **« انهم كانوا يسارعون فى الخيرات ويدعوننا رغبا ورهبا ، وكانوا لنا خاشـعين»**(١٠٨) .. وقال عز وجل : **« ادعوا ربكم تضرعا وخفية ، انه لا يحب المعتدين »**(١٠٩) .

---

(١٠٨) الأنبياء : ٩٠ (١٠٩) الأعراف : ٥٥

« وقال ﷺ : « اذا أحب الله عبدا ابتلاه حتى يسمع تضرعه » ..

● السابع : « أن يجزم الدعاء ، ويوقن بالاجابة ، ويصدق رجاءه فيه .. قال ﷺ : « لا يقل أحدكم اذا دعا : اللهم اغفرلى ان شئت ، اللهم ارحمنى ان شئت ، ليعزم المسألة فانه لا مكره له » ..

« وقال ﷺ : « اذا دعا أحدكم فليعظم الرغبة ، فان الله لا يتعاظمه شيء » ..

« وقال ﷺ : « ادعوا الله وأنتم موقنون بالاجابة ، واعلموا أن الله عز وجل لا يستجيب دعاء من قلب غافل » ..

« وقال سفيان بن عيينة رضى الله عنه : « لا يمنعن أحدكم من الدعاء ما يعلم من نفسه ، فان الله عز وجل أجاب دعاء شر الخلق « ابليس » — لعنه الله — اذ قال : **« أنظرنى الى يوم يبعثون . قال انك من المنظرين »**(١١٠) .

● الثامن : « أن يلح فى الدعاء ويكرره ثلاثا .. قال ابن مسعود رضى الله عنه : « كان عليه الصلاة والسلام اذا دعا دعا ثلاثا ، واذا سأل سأل ثلاثا » ..

« وينبغى ألا يستبطىء الاجابة ، لقوله ﷺ : « يستجاب لأحدكم ما لم يعجل ، فيقول قد دعوت فلم يستجب لى ، فاذا دعوت فاسأل الله كثيرا فانك تدعو كريما » ..

« وقال بعضهم : « انى أسأل الله عز وجل منذ عشرين سنة حاجة وما أجابنى ، وأنا أرجو الاجابة .. سألت الله تعالى أن يوفقنى لترك ما لا يعنينى » ..

« وقال ﷺ : « اذا سأل أحدكم ربه مسألة فتعرف الاجابة ، فليقل : الحمد لله الذى بنعمته تتم الصالحات ، ومن أبطأ عنه شيء من ذلك فليقل : الحمد لله على كل حال » ..

● التاسع : « أن يفتتح الدعاء بذكر الله عز وجل ، فلا يبدأ بالسؤال .. قال سلمة بن الأكوع رضى الله عنه : ما سمعت رسول الله

---

(١١٠) رواه أبو طالب المكى — والآية من سورة الأعراف : ١٤ ، ١٥

ﷺ يستفتح الدعاء الا استفتحه يقول : « سبحان ربى العلى الأعلى الوهاب » ..

وقال أبو سليمان الدارانى رحمه الله : « من أراد أن يسأل الله حاجة ، فليبدأ بالصلاة على النبى ﷺ ، ثم يسأله حاجته ، ثم يختتم بالصلاة على النبى ﷺ .. فان الله عز وجل يقبل الصلاتين ، وهو أكرم من أن يدع ما بينهما » ..

وروى فى الخبر عن رسول الله ﷺ أنه قال : « اذا سألتم الله عز وجل حاجة فابدأوا بالصلاة على ، فان الله تعالى أكرم من أن يسئل حاجتين ، فيقضى احداهما ويرد الأخرى »(١١٠) .

● العاشر : « وهو الأدب الباطن ، وهو الأصل فى الاجابة : التوبة ، ورد المظالم ، والاقبال على الله عز وجل بكنه الهمة .. فذلك هو السبب القريب فى الاجابة » ا هـ .

* * *

سئل ابراهيم بن أدهم : لم ندعوا فلا يستجاب لنا ؟

فقال : « ماتت القلوب فى عشرة أشياء : عرفتم الله ولم تؤدوا حقه ، وقرأتم كتاب الله ولم تعملوا به ، وادعيتم حب الرسول وتركتم سنته ، وادعيتم عداوة الشيطان ووافقتموه ، وقلتم : نحب الجنة . ولم تعملوا لها ، وقلتم : نخاف النار . ورهنتم أنفسكم بها ، وقلتم : ان الموت حق . ولم تستعدوا له ، واشتغلتم بعيوب اخوانكم ونبذتم عيوبكم ، وأكلتم نعمة ربكم ولم تشكروها ، ودفنتم موتاكم ولم تعتبروا بهم .. فأنى يستجاب لكم » ؟ !

* * *

وبعد .. يقول الله تعالى على لسان نوح عليه السلام :

« استغفروا ربكم انه كان غفارا . يرسل السماء عليكم مدرارا . ويمددكم بأموال وبنين ويجعل لكم جنات ويجعل لكم أنهارا . ما لكم لا ترجون لله وقارا »(١١١) .

---

(١١٠) رواه أبو طالب المكى .

(١١١) نوح : ١٠ — ١٣

يقول نوح عليه السلام ناصحا قومه : « ياقوم ، اطلبوا من ربكم مغفرته على كفركم وعصيانكم .. فهو تعالى الغفور ، ومن شأن الغفور غفران الذنوب لمن يرجع اليه ..

انكم ان فعلتم ، يبارك لكم فى أرزاقكم وأولادكم .. فيرسل السماء عليكم بالمطر الغزير ، والخير الوفير .. ويمددكم بالأموال والبنين ، وهما زينة الحياة الدنيا ..

وان من بركة رضاه تعالى عليكم — التى تجدونها باستغفاركم — أن يمنعكم فى حياتكم الدنيا ، فيجعل لكم البساتين الوارفة ، تنعمون بجمالها وثمارها .. ويجعل من تحتكم الأنهار تشربون من مياهها ، وتسقون منها زروعكم ومواشيكم ..

وانكم ان لم تفعلوا ما أقوله لكم — من طلب المغفرة من الله تعالى — فانكم لا تكونون قد عظمتم الله حق تعظيمه .. أو تؤدوا واجب الشكر على نعمته ..

وعن أبى هريرة رضى الله عنه قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول : « والله انى لأستغفر الله وأتوب اليه فى اليوم أكثر من سبعين مرة »(١١٢) .

وعن شداد بن أوس رضى الله عنه : عن النبى ﷺ قال : « سيد الاستغفار أن تقول : اللهم أنت ربى لا اله الا أنت ، خلقتنى وأنا عبدك وأنا على عهدك ووعدك ما استطعت .. أعوذ بك من شر ما صنعت ، أبوء لك بنعمتك على ، وأبوء بذنبى : اغفر لى فانه لا يغفر الذنوب الا أنت ..

قال : « ومن قالها من النهار موقناً بها فمات من يومه قبل أن يمسى فهو من أهل الجنة ، ومن قالها من الليل وهو موقن بها فمات قبل أن يصبح فهو من أهل الجنة »(١١٣) .

والاستغفار .. يجب أن يكون مسبوقا بالاقلاع عن المعاصى ، والرجوع الى الله تعالى بالتوبة والندم ..

---

(١١٢) رواه البخارى . (١١٣) رواه البخارى .

فالتوبة والندم ، والاقلاع عن الذنوب والمعاصى ، ثم الاستغفار الى الله تعالى برجاء التوبة وطمعا فى المغفرة .. هو من أفضل الدعاء ..

وقد أخبرنا — تعالى — أن رضاه ومغفرته مصدران من مصادر البركة فى الأموال والبنين .. وعاملان من عوامل الاستقرار فى المعيشة ، والتمتع بطيبات الحيـاة الدنيا .. فضلا عن الرضا والرضوان فى الحياة الأخرى ..

وعلى النقيض من ذلك .. نقرأ قوله تعالى : **« فاما يأتينكم منى هدى فمن اتبع هداى فلا يضل ولا يشقى . ومن أعرض عن ذكرى فان له معيشة ضنكا ونحشره يوم القيامة أعمى . قال رب لم حشرتنى أعمى وقد كنت بصيرا . قال كذلك أتتك آياتنا فنسيتها ، وكذلك اليوم تنسى . وكذلك نجزى من أسرف ولم يؤمن بآيات ربـه ، ولعذاب الآخـرة أشد وأبقى »**(١١٤) .

لقـد وعد الله عباده المؤمنين .. بأن يمدهم بالهدى والرشاد ، فمن اتبع منهم هداه وامتثل لأمره ، فلا يقع فى المآثم فى الدنيا ، فانه لا يشقى بالعذاب فى الآخرة ، فضلا عن رعاية الله وحمايته له من الشرور فى الدنيا ..

أما من أعرض عن هديه تعالى وطاعته .. فانه يحيا فى الدنيا حياة لا سعادة فيها .. فتراه لا يقنع بما قسم الله له ، ولا يستسلم الى قضاء الله تعالى وقدره فيها .. حتى اذا كان يوم القيامة جاء الى موقف الحساب مأخوذا بذنوبه ، عاجزا عن الحجة التى يعتذر الى ربه بها .. وكما كان فى دنياه أعمى البصيرة عن النظر فى آيات الله ، فان الله تعالى يعميه عن الحجة التى يعتذر بها فى الآخرة .. جزاء وفاقا على تعاميه عن أحكام ربه فى حياته الدنيا ..

ويسأل هذا الشقى ربه — فى ذلك الموقف العصيب ، وكله فزع ورعب — : يارب ، كيف أنسـيتنى حجتى ، وأعجزتنى عن المعذرة ،

---

(١١٤) طه : ١٢٣ — ١٢٧

ووقفتنى أمامك كالأعمى وقد كنت فى الدنيا أبصر ما حولى ، وأجادل وأدافع ؟ !

فيجيبه تعالى : بأن الأمر فى شأنك كما وقع : جاءتك دلائلنا ورسلنا فى الدنيا فنسيتها ، وتعاميت عنها ، ولم تؤمن بها •• وكذلك اليوم تترك منسيا فى العذاب والهوان ••

هذا الجزاء السيء ، يجزى الله به فى الدنيا المقبلين على المعصية ، المكذبين بالله وآياته ، ولعذاب الآخرة أشد ألما ، وأدوم مما كان فى الدنيا ••

« ربنا آتنا فى الدنيا حسنة وفى الآخرة حسنة وقنا عذاب النار »(١١٥) •

« ربنا لا تزغ قلوبنا بعد اذ هديتنا وهب لنا من لدنك رحمة ، انك أنت الوهاب »(١١٦) •

« ربنا هب لنا من أزواجنا وذرياتنا قرة أعين واجعلنا للمتقين اماما »(١١٧) •

« ربنا لا تؤاخذنا ان نسينا أو أخطأنا ، ربنا ولا تحمل علينا اصراً كما حملته على الذين من قبلنا ، ربنا ولا تحملنا ما لا طاقة لنا به ، واعف عنا واغفر لنا وارحمنا ، أنت مولانا فانصرنا على القوم الكافرين »(١١٨) •

« ربنا انتا سمعنا مناديا ينادى للايمان أن آمنوا بربكم فآمنا ، ربنا فاغفر لنا ذنوبنا وكفر عنا سيئاتنا وتوفنا مع الأبرار • ربنا وآتنا ما وعدتنا على رسلك ولا تخزنا يوم القيامة ، انك لا تخلف الميعاد »(١١٩) •

فاللهم ياربنا •• أصلح لنا شأننا كله ولا تكلنا الى أنفسنا طرفة عين ، وأصلح لنا ديننا الذى هو عصمة أمرنا ، وأصلح دنيانا التى فيها

---

(١١٥) البقرة : ٢٠١
(١١٦) آل عمران : ٨
(١١٧) الفرقان : ٧٤
(١١٨) البقرة : ٢٨٦
(١١٩) آل عمران : ١٩٣ ، ١٩٤

معاشنا ، وأصلح انا آخرتنا التى فيهـا معادنا •• وألهمنا رشدنا ، وأعذنا من شر أنفســنا ، واكفنا بحلالك عن حرامك ، وأغننا بفضلك عمن سواك ••

اللهم لا سهل الا ما جعلته سهلا •• وأنت تجعل الحزن ان شئت سهلا ، فنعوذ بك يارينا من الكفر والفقر ، ونعوذ بك من الهم والحزن ، ونعوذ بك من العجز والكسل ، ونعوذ بك من الجبن والبخل ، ومن غلبة الدين وقهر الرجال ••

* * *